الحركة العلمية بمكة في العصر الأموي

د. عبد العزيز الهلابي

كانت مكة أرقى مراكز الاستقرار الحضري في الجزيرة العربية قبل الإسلام، ويعود ذلك إلى جملة أسباب أهمها مكانة مكة الدينية لوجود الكعبة فيها التي يقدسها الكثير من العرب فيأتون إلى مكة للحج في الموسم أو للزيارة في أشهر السنة الأخرى، وعلاقات مكة التجارية الواسعة نسبيًا مع قبائل العرب ومع البلدان المجاورة. وقد كان انتشار القراءة والكتابة بين أهل مكة أكثر من انتشارها في مدن وقبائل الجزيرة العربية الأخرى. ويعكس الجدل القرآني في بعض السور المكية تمتع أهل مكة بمستوى عقلي رفيع نسبيًا.

فرفض أكثرهم دعوة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الإيمان بالله وحده، ونبذ عبادة ما سواه لم يكن بسبب قصور في الفهم أو الاستيعاب، وإنما بسبب العناد والمكابرة، أو بسبب التشبث بما كان يعبد آباؤهم، أو خشية فقدان مراكزهم الاجتماعية أو الاقتصادية أو القبلية. فالذين اعتنقوا الإسلام من أهل مكة من غيرهم لم يجدوا صعوبة في فهمه سواء في مجال الاعتقاد أو في مجال التشريع في العبادات والمعاملات.

لقد ترتب على موقف أهل مكة المعادي للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودعوته وللذين اعتنقوا الإسلام منهم أن اضطر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمسلمون إلى مغادرة مكة والهجرة إلى يثرب ليتمكنوا من أداء شعائر دينهم ونشره بين العرب. وكان من أول ما قام به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد أن استقر به المقام في يثرب أن أسس المسجد ليكون مركز عبادة وتعليم، ومركز قيادة وإدارة لشؤون المسلمين. وكان الوحي ينزل على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يدونه كتاب مخصوصون، ويقرؤه المسلمون ويعملون به. وكان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعلم المسلمين ويفقههم في أمور دينهم كما كان يوجههم في أمور دنياهم. فكانت حياة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مصدر هدى وتشريع للمسلمين يسيرون وفق أقواله، ويقتدون بأفعاله.

وأصبحت المدينة نتيجة لذلك مركز القوة والسياسة والعلم في الجزيرة العربية وانحسرت أهمية مكة، وأخذ من أسلم من أهلها يهاجر إلى المدينة، ولم تتوقف الهجرة منها حتى بعد أن فتحها الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ سنة ثمان من الهجرة، ودخول أهلها جميعهم في الإسلام لينعموا بفضل صحبة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومحاولة التعويض عما فاتهم قبل ذلك، ثم أخذوا بعد وفاة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يشاركون في عمليات الفتح الإسلامي للبلاد المجاورة ومن ثم الاستقرار فيها. ولقد سبب كل ذلك تفريغا كبيرا لمكة من سكانها، وخاصة الصفوة وذوي الشأن منهم.

وقد كره رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عودة المهاجرين إلى مكة بقصد الاستقرار، وقال: «اللهم أمض لأصحابي هجرتهم، ولا تردهم على أعقابهم»⁽¹⁾ مما جعل العودة للاستقرار بمكة بعد الهجرة تعد أمرا معيبا، كما

يعكس نص يرويه الواقدي (ت ٢٠٧هـ) : «لا نعلم أحدا من المهاجرين من أهل بدر رجع إلى مكة ـ يعني بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ـ ، فنزلها غير أبي سبرة [ابن أبي رهم بن عامر بن لؤي] فإنه رجع إلى مكة بعد وفاة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكره ذلك له المسلمون، وولده ينكرون ذلك، ويدفعون أن يكون رجع إلى مكة فنزلها بعد أن هاجر منها، ويغضبون من ذكر ذلك . . »(١م).

وفي ظل تلك الأحوال لا يتوقع أن تنشأ حركة علمية في مكة ذات بال في العقود المبكرة من تاريخ الإسلام؛ وهذا ما يجعل بداية الحركة العلمية في مكة يكتنفها الغموض بسبب من عدم عناية المصادر برصد تاريخ مكة بعد عهد الرسالة، يضاف إلى ذلك أنه لم يبرز في مكة عالم أو أكثر في الفترة المبكرة حتى يلفتوا الانتباه إلى أنفسهم فيدون علمهم وسيرهم.

كيف بدأت الحركة العلمية في مكة؟

تذكر المصادر(٢) أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما فتح مكة استعمل عتاب بن أسيد واليا عليها، وعهد إلى معاذ بن جبل الأنصاري أن يقوم بتعليم أهل مكة القرآن والفقه في الدين. على أننا لا نعرف على وجه الدقة المدة الزمنية التي مكثها معاذ لتأدية هذه المهمة، كما أننا لا نعرف أية تفاصيل عن الذين تتلمذوا عليه، ولكننا نعرف أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في السنة التاسعة من الهجرة أرسل معاذا على رأس وفد من الصحابة إلى اليمن ليقوموا بنشر الإسلام، وجمع الصدقات(٣)، ومن ذلك ندرك أن بقاءه بمكة كان أقل

من سنة . ولا نظن أن الأشهر التي أمضاها في مكة كانت كافية لتفقيه الناس في أمور دينهم ، ولكننا نميل إلى الاعتقاد بأن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد عهد بهذه المهمة إلى آخرين من أصحابه ، وإن كنا لا نملك دليلاً على ذلك في الوقت الحاضر.

وكان من نتائج فتح مكة ، ودخول أهلها في الإسلام أن قويت الصلات بين المسلمين في المدينة وإخوانهم في مكة . فأهل مكة أخذوا يذهبون إلى المدينة للالتقاء بالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبالصحابة الآخرين ، وخاصة أقاربهم من المهاجرين ، والمسلمون في المدينة بدأوا يأتون إلى مكة لأداء الحج أو العمرة وزيارة الأقارب وقضاء المصالح الخاصة . كل هذا قوى التفاعل بين أهل مكة حديثي الإسلام ، وإخوانهم في المدينة السابقين إلى الإسلام . وحرص أهل مكة على التفقه في الدين والتعويض عما فرطوا في سابق وقتهم .

والمصادر التي لا تمدنا بمعلومات عن حال التعليم بمكة في العهد النبوي سوى الإشارة إلى دور معاذ بعد الفتح ، فإنها شحيحة كذلك في المعلومات عن حال التعليم في العهد الراشدي إلا أنه يمكن الاستنتاج أنه كان هناك نوع من النشاط العلمي الذي يرتكز بصفة خاصة على قراءة القرآن ومعرفة السنن . فهي تشير إلى أن نافع بن عبد الحارث الخزاعي والي مكة لعمر بن الخطاب استقبل الخليفة عمر عندما قدم إلى مكة في عسفان⁽٤⁾ وسأله الخليفة : «من استخلفت على أهل الوادي يعني مكة ـ؟ قال : ابن أبزي . قال : ومن ابن أبزي؟ قال : رجل من موالينا . فقال عمر: استخلفت عليهم مولى؟ ! قال إنه قارئٌ لكتاب الله عز وجل عالم بالفرائض . فقال عمر: أما إن نبيكم ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : إن الله عز وجل يرفع بهذا القرآن قوما ، ويضع به آخرين»⁽٥⁾.

ويتضح من هذا النص أنه كان في مكة حركة تدريس للقرآن والفرائض في عهد عمر وما قبله، فالحادثة السابقة وقعت كما يظهر في سنة ثلاث وعشرين للهجرة، وهي السنة التي قتل فيها عمر(٦). وكان التعليم متاحا فيها لجميع المسلمين، العرب صليبة والموالي.

ولقد روى عبد الرحمن بن أبزي الخزاعي أحاديث عن أبي بكر وعمر وأبي بن كعب وعمار بن ياسر(٧)، وهذا يشير إلى لقائه كل هؤلاء الصحابة الأجلاء، وقد يكون اللقاء حدث في مكة أو في المدينة. والأحاديث المحفوظة من رواية عبد الرحمن بن أبزي كلها تتعلق بأمور الصلاة وأدعية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ(٨). ولكننا لا نعرف على من أخذ قراءة القرآن؛ فالمصادر لم تذكر له رواية أو اتصالاً بمعاذ بن جبل.

ومن أوائل المكيين الذين كان لهم إسهام في الحركة العلمية عبد الله بن السائب المخزومي (ت. قبل سنة ٦٨هـ). أسلم عبد الله يوم فتح مكة وهو صغير، وظل مقيماً بمكة إلى أن توفي(٩)، قرأ عبد الله القرآن على أبي بن كعب، وحدث عنه وعن عمر بن الخطاب، ووصف بمقرئ مكة، وأصبح أستاذاً في القراءة فمقرئو مكة أخذوا القراءة عنه(١٠). ولا نعرف كيف أخذ القراءة عن أبي بن كعب، هل ذهب إلى المدينة أو أن أبيّا أقام في مكة بعض الوقت فتتلمذ عليه عبد الله؟، إلا أنه من المتوقع لو أن أبيا أقام في مكة بعض الوقت لتتلمذ عليه آخرون غير عبد الله.

وكان جد عبد الله شريك النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في التجارة في الجاهلية وقد أثنى عليه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ(١١).

ويبدو أن مكانة عبد الله العلمية والشخصية محل تقدير الخليفة عمر بن

الخطاب فعندما جاء إلى مكة إثر سيول مدمرة حدثت في مكة، وتسببت في تغيير موضع مقام إبراهيم ـ عليه السلام ـ عهد الخليفة إلى عبد الله بإعادة المقام إلى مكانه الأصلي(١٢).

وكان عبد الله يؤم الناس بالمسجد الحرام نستدل على ذلك من قوله « . . أنا أول من صلى خلف المقام حين رد في موضعه هذا، ثم دخل عمر وأنا في الصلاة فصلى المغرب. . . فلما قضى عمر صلاته قال: أحسنت»(١٣).

وكانت علاقة عبد الله بن السائب بعبد الله بن عباس علاقة ود واحترام متبادل، فكان ابن السائب يأتي إلى ابن عباس في مجلسه في المسجد الحرام، ويسأل ابن عباس عن المواضع التي صلى فيها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيقوم ابن عباس فيصلي في المواضع نفسها(١٤). ولا يحفظ أحمد بن حنبل في مسنده أحاديث من رواية ابن السائب سوى أربعة أحاديث(١٥).

ومن جيل ابن السائب نفسه نافع بن ظريب بن عمرو بن نوفل أسلم عند فتح مكة وهو صغير السن. ويظهر أن نافعا كان يتقن الكتابة؛ فقد ذكر أنه كتب المصاحف، واختلف إن كان ذلك في عهد عمر بن الخطاب(١٦) أو في عهد عثمان بن عفان(١٧). وإسناد مسئولية كتابة المصاحف يستوجب أولاً إجادة القراءة والكتابة، ولكن لا بد أن يكون الكاتب أيضا مجيدا لقراءة القرآن عارفا بأسباب نزوله، كما يجب أن يكون فصيحا عالما باللغة العربية، وخاصة لغة قريش وأشعار العرب. ولا بد أن نافعا كان كذلك، وهذا يدل على نمو الحركة التعليمية في مكة في زمن مبكر، وإن كنا في واقع الأمر لا نعرف عن هذه الحركة شيئا سوى معرفتنا القليلة عن هؤلاء الرجال الذين يمثلون نتاجها.

ومن المسهمين في الحركة العلمية في مكة في هذه المرحلة عبيد بن عمير بن

قتادة الليثي الكناني، وقد ولد على عهد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وتوفي سنة أربع وسبعين، وروى الحديث عن عمر وعلي وأبي بن كعب وأبي موسى وعائشة وابن عمر وابن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاص⁽¹⁸⁾. ووصف بأنه ثقة كثير الحديث⁽¹⁹⁾. وكان عبيد أول من قص بمكة في عهد عمر بن الخطاب⁽²⁰⁾. وكان محل فخر أهل مكة، قال مجاهد: نفخر على الناس بأربعة: فقيهنا ابن عباس، وقارئنا عبد الله بن السائب، ومؤذننا أبي محذورة، وقاصنا عبيد بن عمير⁽²¹⁾.

وكان القاص يقوم في المسجد الحرام بعد صلاة الصبح، فيذكر الله تعالى ويدعو ويؤمِّن الناس، وذلك خلف المقام بعد تسليم الامام⁽²²⁾. وقد وصف القصاص بأنهم «الذين يذكرون الجنة والنار والتخويف، وهم نية وصدق الحديث»⁽²³⁾. على أنه ليس كل القصاص كذلك، فبعضهم ينقصه العلم وصدق النية وصدق الحديث، ومثل هؤلاء محل نقد من علماء الأمة، وإن كان لهم بعض القبول من عامة الناس. وعندما سئل عبد الله بن عمر عن قاصٍّ من هذه الفئة يقص في المسجد الحرام: أي شيء يقول هذا؟ قال: هذا يقول اعرفوني اعرفوني⁽²⁴⁾.

على أن عبيد بن عمير يجمع بين العلم وصدق النية والحديث، وكان محل تقدير وإعجاب كل الناس، فعبد الله بن عمر ـ وهو من هو في العلم ـ يأتي إلى حلقة ابن عمير، ويستمع إلى قصصه، وتبدأ عيناه تهريقان دمعا من شدة التأثر ويقول: لله درك يا بن قتادة ماذا تجيء به⁽²⁵⁾. وعندما كان ابن عمر في حلقته في المسجد الحرام، والناس يسألونه، وعبيد بن عمير يقص فقال: خلوا بيننا وبين مذكرنا⁽²⁶⁾.

ولقد عد عبيد من الناحية العلمية في مصاف علماء الصحابة من حيث هم قدوة في سلوكهم الديني، فعطاء بن أبي رباح (ت ١١٤هـ) يقول: «أدركت مشايخنا ابن عباس وجابرا وأبا هريرة وعبيد بن عمير لا يستلمون إلا الحجر الأسود والركن اليماني»(٢٧). وكان عبيد يجلس مع عبد الله بن عمرو بن العاص حيث يقول: «بينما نحن جلوس في المسجد الحرام بعدما ارتفع النهار، وقلصت الأفياء. .»(٢٨)، ولا بد أن مثل هذا المجلس كانت تدور فيه روايات لأحاديث وأخبار ونقاش لقضايا فقهية كثيرة. وكانت أم المؤمنين عائشة مجاورة بين جبلي حراء وثبير لمدة شهرين، وكان يتردد عليها طلاب العلم وناس من قريش، ومن المتوقع أن يدور في مجالسها الحديث عن سنن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسيرته. وكان عبيد مع عطاء بن أبي رباح من الذين يترددون على مجلسها، وقد سألها عبيد فقال: أي هنتاه! ما قول الله عز وجل: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ﴾؟(٢٩). «أما عائشة فقد أوصت عبيدا وقالت: اقصص يوما ودع يوما، لا تملّ الناس»(٣٠)، وفي رواية أنها قالت: «خفف فإن الذكر ثقيل»(٣١).

وقد روى عبيد عن كعب الأحبار(٣٢)، وقد تكون روايته عنه مشافهة إلا أننا نستطيع القول إن أثر أهل الكتاب في المواعظ والأحاديث التي يحفظها أبو نعيم لعبيد ضئيل جدا(٣٣).

وكان عبد الله بن الزبير إبان حكمه لمكة يجل عبيد بن عمير، ويقدر منزلته العلمية فكان يستشيره في المسائل الخطيرة مثل هدم الكعبة بعد احتراقها، وإعادة بنائها، فأشار عليه عبيد مع الصحابي جابر بن عبد الله وعبد الله بن صفوان الجمحي بالشروع في هذا العمل(٣٤)، كما كان يسأله عن بعض القضايا

التاريخية، منها: كيف بلغك أن إبراهيم دعا إلى الحج(٣٥)؟ وسأله عن بدو أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ(٣٦).

ويذكر ابن سعد(٣٧) أنه عندما بـايع أهل مكة لابن الزبير سنة خمس وستين للهجرة كان عبيد بن عمير من أسرعهم إلى بيعته، وبعـد هزيمة ابن الزبير وقتله على يد الحجاج بن يـوسف سنة ثلاث وسبعين للهجرة سأل الصحـابي جابر بن عبد الله عبيد الله بن عمير ـ ربما مداعبا ـ: كيف أنت يا ليثي؟ قال: بخير على ظهور عدونا علينا(٣٨).

ومما يسترعي الانتباه أنـه بالرغم من أن كلا من عبـد الله بن عباس وعبيد بن عمير كانـا يقيمان معا في مكة فإننا لا نـلاحظ بينهما صلات قوية، وكـلاهما له حلقة في المسجد الحرام، والذين أخذوا العلم عن عبيد هم وجوه أصحاب ابن عباس مثل عطـاء بن أبي رباح ومجاهـد بن جبر وعبيد الله بن أبي مليكـة وعمرو بن دينـار. ومن الروايـات النـادرة التي تذكـر حـدوث الاتصال بينهما مـا رواه تلميـذهما مجاهد: «أن ابن عبـاس دخل المسجـد وعبيد بن عمير يقص فقـال لقائده: اذهب بي نحـوه، فجاء حتى قـام على رأسه فقال: يـا أبا عـاصم ذكر بالله وذكر الله، ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴾(٣٩)، واذكر في الكتاب موسى، واذكـر في الكتاب إسماعيل(٤٠)». ومن غير الواضـح إن كان توجيه ابن عباس يتضمن نقدا لقصص عبيد أم غير ذلك. ورواية عبيد عن ابن عباس قليلة جدا مع أن مكانة ابن عبـاس العلمية لا تدانيها مكانة أي شخص آخر خـاصة في مكة. ولعل في تنـاقض مواقفهما السيـاسية من حركـة ابن الزبير يكمن تفسير فتور العلاقات بينهما.

وبعض الـروايـات المحفـوظـة لعبيـد يمكن أن تعطينـا تصـوراً لاهتمامـاتـه

العلمية، فجانب منها يتعلق بتاريخ الأنبياء(٤١)، وجانب آخر يتعلق بسيرة الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ(٤٢)، وردة بني حنيفة(٤٣). وكانت له فتاوى يأخذ بها ولاة مكة(٤٤).

ومن النساء اللواتي أسهمن في الحركة العلمية بمكة وخاصة رواية الحديث صفية بنت شيبة بن عثمان بن أبي طلحة من بني عبد الدار حجبة الكعبة. ولا نعرف شيئا عن نشأة صفية، وهل قدر لها أن تتعلم القراءة والكتابة، أو أنها اكتسبت علمها من مجالسة أمهات المؤمنين عندما يقدمن إلى مكة للحج والعمرة وخاصة عائشة وأم سلمة وأم حبيبة. وقد وصف الذهبي صفية بالفقيهة والعالمة(٤٥)، ولا يمكن إطلاق هذا الوصف على من اقتصر على رواية الحديث. وليس الذهبي من الذين يطلقون الكلم على عواهنه بالرغم من الفارق الزمني بين الواصف والموصوف. وقد أخذ عنها الحديث جماعة منهم ابنها منصور بن عبد الرحمن الحجبي، وسبطها محمد بن عمران الحجبي، وابن محيصن المقرئ وغيرهم(٤٦).

إن العلماء الذين تناولناهم بالدراسة يمثلون أشهر علماء تلك الفترة الزمنية، ويمكن تسجيل عدد من الملحوظات هي: أنهم خمسة، امرأة وأربعة رجال ثلاثة منهم من قريش (مخزوم، نوفل، عبد الدار) وليثي (كناني) وخزاعي. ويظهر أن الصدفة وحدها تدخلت في توزيعهم على هذا النحو، ولكن ذلك لا يخلو على أية حال من دلالة على الوضع السكاني والتغير الاجتماعي بمكة. فكل من قريش وخزاعة وكنانة يسكنون جميعا في مكة، وإن كانت خزاعة وكنانة في أطرافها. ومشاركة صفية في الحركة العلمية تعطي تصوراً عن الدور الإيجابي للمرأة في الإسلام، وهناك عدد لا بأس به من الصحابيات والتابعيات

المكيات اللواتي لهن رواية للحديث، ولكنهن لا يصلن إلى مكانة صفية. ومما هو جدير بالملاحظة أيضا أن إجادة ابن أبزي الخزاعي لتلاوة القرآن ومعرفته بالسنن رفعت منزلته الاجتماعية ليصبح أميرا على مكة بالنيابة وهو مولى، وفيها جميع بطون قريش وبعض خزاعة وكنانة، ولم يتذمر أحد منهم أو يشتكي إلى الخليفة عمر خصوصا إذا عرفنا أن المدة الزمنية الفاصلة بين دخول أهل مكة في الإسلام بعد الفتح وبين الحادثة لا تزيد على خمسة عشر عاما.

أما العلوم فكانت تقتصر على تلاوة القرآن الكريم ومعرفة السنن والفريضة أو الفرائض وهي كيفية توزيع تركة الميت على ورثته وفقا للشرع الإسلامي.

ولكننا في واقع الأمر في حاجة شديدة إلى معلومات عن التعليم في مراحله الأولى. أفكان الصبيان يتعلمون القراءة والكتابة في مكاتب أو في المسجد الحرام؟. وعن مدى إقبال الناس على تعليم أطفالهم، وهل للمنزلة الاجتماعية (قريش، العرب، الموالي ـ الغني ـ الفقير)؟ أثر في الإقبال على تعليم الأطفال ومن الذي كان يقوم بتعليم الصبيان؟ وما هي النظرة الاجتماعية إلى هؤلاء المعلمين؟ وما هي الأجور التي يتقاضونها مقابل ذلك؟ وهل يقوم بها بعضهم احتسابا؟ وهل تدرس علوم أخرى بجانب القراءة والكتابة؟ وما هي وسائل ومواد الكتابة؟ وهل هناك مرحلة متوسطة تعقب المرحلة المبكرة؟ وماذا تسمى؟ وأين تكون حلقاتها هل في المنازل أو في المسجد الحرام؟ وماذا يصنف معلموها؟ أما مناهجها فيمكن تصور أنها كانت تشمل قراءة القرآن الكريم، وحفظ شيء منه، ودراسة مبادئ علوم الدين وربما شيء من العربية والنسب. وهل هناك مستوى معين للطلاب يسمح لهم بعده بالالتحاق بحلقات كبار العلماء؟ كل هذه الأسئلة لا نملك لها جوابا، ومن المؤكد أن أجوبتها تعين الباحث في دراسة

الحركة العلمية دراسة أكثر عمقا ودقة وتنظيما.

على أن هناك جانبا آخر للحركة العلمية بمكة يمكن اعتباره استمراراً للثقافة العربية قبل الإسلام، أعني ذلك الذي يهتم بالأنساب والأخبار وأيام العرب والشعر، ولكن مجيء الإسلام بما فيه من قيم جديدة ركز اهتمام الحركة الفكرية على القرآن تلاوة وتدبرا، ومعرفة السنن بما فيها من أحكام وآداب، ونحّى الاهتمام بالأنساب والأخبار والشعر من المركز إلى الهامش. ومع ذلك فإننا نميل إلى الاعتقاد بأن مصادرنا لا تعكس الصورة الواقعية للحركة الفكرية بمكة في العصر الأموي إذ أن اهتمامها انصب بصفة رئيسة على رصد وتسجيل العلوم الإسلامية والمشتغلين بها، وأهملت أولئك المهتمين بالأخبار والأنساب والشعر إهمالاً يكاد يكون تاما، والقليل من الروايات التي تحفظها مصادرنا يمكن أن تؤيدنا فيما نذهب إليه، من ذلك أن بعض المجالس كانت تعقد، ويتذاكر فيها أخبار مكة وقريش قبل الإسلام فعلى سبيل المثال يروي عبد الله بن أبي نجيح (ت ١٣٢هـ) عن أبيه قال: جلس رجال من قريش في المسجد الحرام فيهم حويطب بن عبد العزى (ت ٥٤هـ) فتذاكروا بنيان قريش الكعبة، وما هاجهم على ذلك، وكيف كان بناؤها قبل ذلك، قالوا..»(٤٧). ويروي ابن أبي نجيح أيضًا عن حويطب قوله: «كان في الجاهلية في الكعبة حلق أمثال لجم البهم يدخل الخايف فيها يده فلا يريبه أحد»(٤٨).

ومن المهتمين بأخبار مكة في الجاهلية والإسلام المطلب بن أبي وداعة السهمي - من مسلمة الفتح -، ولمعرفته بمعالم مكة وحدودها فقد عهد إليه الخليفة عمر بن الخطاب مع آخرين بتحديد أنصاب الحرم(٤٩)، واستمر الخلفاء يعهدون إليه بهذه المهمة حتى عهد معاوية بن أبي سفيان(٥٠).

وكان مخرمة بن نوفل (من بني زهرة) (ت٥٤هـ) مثل حويطب من مسلمة الفتح، وكان له علم بأيام الناس وبقريش خاصة، وعنه يؤخذ النسب(٥١).

ويحفظ الأزرقي(٥٢) مثالاً لتذاكر قريش أخبار مكة من رواية الواقدي:

. . اجتمع عند معاوية بن أبي سفيان ـ وهو خليفة ـ، نفر من قريش منهم جعدة بن هبيرة (المخزومي) وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام (المخزومي) وعبد الله بن زمعة بن الأسود (الزهري) فتذاكروا أحاديث العرب. . . وسألهم معاوية عن عدد من الموضوعات تتعلق ببناء البيت، وتقسيم مكة إلى رباع».

أما المرحلة الثانية للحركة العلمية بمكة فتتمثل بعبد الله بن عباس (ت ٦٨هـ) وتلاميذه، فقد كان لمجيء ابن عباس إلى مكة واستقراره أثر حاسم فيها، فعلمه الغزير والموسوعي وسع آفاقها بعد أن كان نشاطها محدوداً من حيث التنوع الموضوعي ومن حيث العمق، يضاف إلى ذلك عامل مهم جداً وهو تفاني ابن عباس في أداء رسالته العلمية. ويظهر أنه بعد شعوره بالخيبة من جراء اشتغاله في السياسية إبان خلافة علي بن أبي طالب، وأثناء الفتنة لم يعد له أي طموح آخر سوى نشر العلم. ولم يكن هناك مكان أفضل لتحقيق هذا الهدف من مكة فقد كانت في أمس الحاجة إلى علمه، لأن جُلّ علماء الصحابة كانوا يقيمون في المدينة، والبقية الباقية منهم تفرقوا في البلدان المفتوحة. يقول عبد الملك بن أبجر: «إنما فقه أهل مكة حين نزل ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ بأظهرهم»(٥٣) ولكن متى نزل ابن عباس مكة؟ تفيد معظم المصادر أو «عامة أهل السير» ـ على حد تعبير الطبري ـ، أنه حدث في سنة أربعين من الهجرة سوء فهم بين الخليفة علي بن أبي طالب وواليه على البصرة عبد الله بن عباس ترتب عليه مغادرة ابن عباس البصرة، وذهب إلى مكة(٥٤). وفي ضوء

المعلومات المتوفرة لا نستطيع الجزم بأنه استقر بمكة منذ تلك السنة، وإن كانت لدينا إشارات تؤيد ذلك؛ فالطبري يروي في أحداث سنة ستين من الهجرة: «أن ابن الزبير والحسين لما دعيا إلى البيعة ليزيد أبيا، وخرجا من ليلتهما إلى مكة فلقيهما ابن عباس وابن عمر جائيين مكة»(٥٥). وعندما عزم الحسين على الخروج من مكة سنة ٦٠هـ إلى العراق لإعلان الثورة على بني أمية كان ابن عباس بمكة، ونصحه بالعدول عن هذا المشروع(٥٦).

ولعله لا يعد استطراداً إلقاء الضوء على جانب من سيرة ابن عباس العلمية المبكرة مما قد يساعد على فهم دوره بالنهوض بالحركة العلمية بمكة. بدأ ابن عباس في تلقي العلم منذ نعومة أظفاره بدءًا بالقرآن الكريم، ولقد أفاد بالرغم من صغر سنه من صحبته للرسول ـ ﷺ ـ، ويروى أن الرسول دعا له بقوله: «اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل»(٥٧). وقد وهب ابن عباس ذكاء وقاداً وقدرة استثنائية على الفهم والاستيعاب مع حب للعلم وجلد ومثابرة في تحصيله، ويضاف إلى ذلك كله قرابته من الرسول ـ ﷺ ـ فهو ابن عمه وزوج خالته ميمونة، وهذا أعطاه الفرصة أكثر من غيره لرؤية الرسول ولقياه، والتأدب بأدبه ومعرفة سننه، كما أن هذه القرابة جعلته محل تقدير ومحبة الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ.

ويروي ابن عباس طرفاً من تجربته الشخصية في التحصيل العلمي فيقول: «كنت ألزم الأكابر من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ من المهاجرين والأنصار فأسألهم عن مغازي رسول الله ـ ﷺ ـ وما نزل من القرآن في ذلك، وكنت لا آتي أحداً منهم إلا سرَّ بإتياني لقربي من رسول الله ـ ﷺ ـ، فجعلت أسأل أبي بن كعب يوماً ـ وكان من الراسخين في العلم ـ عما نزل من القرآن في المدينة،

فقال: نزل بها سبع وعشرون سورة، وسائرها بمكة(٥٨).

ويقول أيضاً: «وجدت عامة حديث رسول الله ـ ﷺ ـ عند الأنصار، فإني كنت لآتي الرجل فأجده نائماً لو شئت أن يوقظ لأوقظ، فأجلس على بابه تسفي على وجهي الريح حتى يستيقظ، متى ما استيقظ وأسأله عما أريد وأنصرف(٥٩). وقالت سلمى زوجة أبي رافع مولى رسول الله ـ ﷺ ـ: «رأيت عبد الله بن عباس معه ألواح يكتب عليها عن أبي رافع شيئاً من فعل رسول الله ـ ﷺ ـ(٦٠).

وقد شهد لنبوغه العلمي كبار الصحابة وعلماؤهم، فعمر بن الخطاب يقول عنه: «ذاكم فتى الكهول له لسان سئول وقلب عقول(٦١)». وعبد الله بن مسعود الذي نشر العلم بالكوفة يقول عنه: «لو أن ابن عباس أدرك أسناننا ما عشره منا رجل. نعم ترجمان القرآن ابن عباس(٦٢)». وتنبأ له أبي بن كعب بمكانة علمية فريدة فقال: «هذا يكون حبر هذه الأمة، أوتي عقلاً وفهماً...»(٦٣). أما سعد بن أبي وقاص فقال عنه: «ما رأيت أحضر فهماً ولا ألب لباً ولا أكثر علماً ولا أوسع حلماً من ابن عباس، لقد رأيت عمر يدعوه للمعضلات فيقول: قد جاءت معضلة، ثم لا يجاوز قوله، وإن حوله لأهل بدر»(٦٤).

وابن عباس مثلما كان حريصاً على تحصيل العلم كان حريصاً على نشره وإذاعته بين الناس أينما كان، فعندما عهد إليه علي بن أبي طالب إبان خلافته بإمارة البصرة أخذ ينشر العلم بين أهلها. يقول الحسن البصري (ت ١١٠هـ): «كان ابن عباس من الإسلام بمنزل، وكان من القرآن بمنزل، وكان يقوم على منبرنا هذا فيقرأ البقرة وآل عمران فيفسرهما آية آية(٦٥)».

وبعد أن استقر به المقام في مكة انكب عليه طلاب العلم لينهلوا من معين علمه، ويصور لنا أحد تلاميذه ـ وهو عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ـ مزايا ابن عباس العلمية، وأنواع الدروس التي تلقى في مجالسه: «كان ابن عباس قد فات الناس بخصال: بعلم ما سبقه، وفقه فيما احتيج إليه من رأيه، وحلم وسيب ونائل. وما رأيت أحداً كان أعلم بما سبقه من حديث رسول الله ـ ﷺ ـ منه، ولا أعلم بقضاء أبي بكر وعمر وعثمان منه، ولا أفقه في رأي منه، ولا أعلم بشعر ولا عربية ولا بتفسير القرآن ولا بحساب، ولا بفريضة منه، ولا أعلم بما مضى، ولا أثقف رأياً فيما احتيج إليه منه، ولقد كان يجلس يوماً ما يذكر فيه إلا الفقه، ويوماً التأويل، ويوماً المغازي، ويوماً الشعر، ويوماً أيام العرب. وما رأيت عالماً قط جلس إليه إلا خضع له، وما رأيت سائلاً قط سأله إلا وجد عنده علماً»(٦٦) .

ونلاحظ من هذا النص أن العلوم في مكة اتسعت، ولم تعد تقتصر على تلاوة القرآن، ومعرفة السنن، فأصبحت تشمل التأويل والمغازي وأيام العرب والأنساب. ويشهد لابن عباس تلاميذه الكثر بغزارة العلم والكرم، فعطاء بن أبي رباح يقول: «ما رأيت مجلساً أكرم من مجلس ابن عباس، ولا أعظم جفنة، ولا أكثر علماً. . .»(٦٧)، ومثل ذلك قال مجاهد وعمرو بن دينار(٦٨) .

ومر عبد الله بن صفوان (الجمحي) يوماً بدار عبد الله بن عباس فرأى فيها جماعة من طالبي الفقه، ومر بدار عبد الله بن عباس فرأى فيها جمعاً يتناوبونها للطعام، فدخل على ابن الزبير فقال: أصبحت والله كما قال الشاعر:

فإن تصبك من الأيام قارعة لم نبك منك على دنيا ولا دين (٦٩) .

وكان منادٍ ينادي بمكة: من يريد العلم واللحم فليأت منزل عبد الله بن

عباس(٧٠).

وقال إبراهيم بن عكرمة: كنت آتي ابن عباس أنا وحيي بن يعلى وسعيد بن جبير، كنت أسأله عن النسب، ويسأله حيي عن أيام العرب، ويسأله سعيد عن الفتيا والتأويل(٧١).

أما أبو صالح مولى أم هاني بنت أبي طالب أحد تلاميذ ابن عباس فيروي حديثاً طويلاً يعكس إقبال طلاب العلم على ابن عباس إقبالاً كبيراً لدرجة أن المرء يخالجه شيْ من الشك في صحته، أو على الأقل، فيه شيْ من المبالغة، ونصه: «لقد رأيت من ابن عباس مجلساً لو أن جميع قريش فخرت به لكان فخراً، لقد رأيت الناس اجتمعوا حتى ضاق بهم الطريق فما كان أحد يقدر على أن يجيْ ولا أن يذهب. قال: فدخلت عليه فأخبرته بمكانهم على بابه، قال: ضع لي وضوءًا. قال: فتوضأ وجلس وقال: اخرج وقل لهم: من كان يريد أن يسأل عن القرآن وحروفه وما أريد منه فليدخل. قال: فخرجت فآذنتهم فدخلوا حتى ملأوا البيت والحجرة فما سألوا عن شيْ إلا أخبرهم به، وزادهم مثل ما سألوا عنه أو أكثر. ثم قال: إخوانكم! فخرجوا. ثم قال: اخرج فقل: من أراد أن يسأل عن تفسير القرآن وتأويله فليدخل. قال: فآذنتهم فدخلوا حتى ملأوا البيت والحجرة فما سألوا عن شيْ إلا أخبرهم به، وزادهم مثل ما سألوا عنه وأكثر. . . وصنع مثل ذلك مع الذين يسألون عن الحلال والحرام والفقه، ومع الذين يسألون عن الفرائض وما أشبهها، ومع الذين يسألون عن العربية والشعر والغريب(٧٢)».

وخرج معاوية حاجاً ومعه ابن عباس، وكان لمعاوية موكب، ولابن عباس موكب ممن يطلب العلم(٧٣). ونظرت عائشة إلى ابن عباس ومعه الحلق ليالي

الحج، وهو يُسأل عن المناسك فقالت: أعلم من بقي بالمناسك(٧٤). ومثل ذلك قالت أم سلمة عندما قال أحد الحجاج: أرى الناس منقصفين على ابن عباس(٧٥).

وكان لابن عباس مجلس في المسجد الحرام، وكان موضعه في زاوية زمزم التي تلي الصفا وهو على يسار من دخل زمزم(٧٦). ويقول تلميذه عبيد الله بن أبي مليكة (ت ١١٧هـ): كان ابن عباس يجلس في الصفة، وكان الناس يتصدرون عن فتياه، فيقول السقاة: كأنه رسول الله - ﷺ - إلا أنه لم يبعث(٧٧). والظاهر أن الصفة وزاوية زمزم مكان واحد بدليل الإشارة إلى السقاة الذين يمتحون الماء من عين زمزم. وقد عمل حفيده سليمان بن علي قبة من الخشب على موضع مجلسه في ولاية خالد بن عبد الله القسري على مكة(٧٨).

وكان طلاب العلم من كل البلدان الإسلامية يحرصون على لقاء ابن عباس والأخذ عنه، ولا يستثنى من ذلك الخوارج، فقد قدموا من اليمامة يرأسهم نجدة بن عامر الحنفي، وإذا هم بعبد الله بن عباس قاعداً قريباً من زمزم عليه رداء له أحمر وقميص فإذا ناس قيام يسألونه عن التفسير يقولون: يا أبا العباس ما تقول في كذا وكذا؟ فيقول: كذا وكذا(٧٩).

ويظهر أن طلاب العلم لا يكتفون بالأخذ عنه في مجلسه فقط بل يحاولون الاستفادة منه في كل الأوقات وجميع الظروف، فأبو العالية البصري (ت ٩٣هـ) يقول: «كنت أطوف مع ابن عباس وهو يعلمني اللحن»(٨٠). والمقصود الخطأ في كلام العرب والاحتراز من الوقوع فيه.

وحديث أبي صالح الآنف الذكر والأحاديث التي سبقته تدل على أن ابن عباس يقيم مجالس علمه أيضاً في منزله، ولدينا إشارة تدل على أن له مجلسين،

فعندما سئل عبيد بن يزيد المكي (ت ١٢٦هـ): مع من كنت تدخل على ابن عباس؟ قال: مع عطاء والعامة، وكان طاووس يدخل مع الخاصة(٨١).

وكلمتا «خاصة وعامة» يمكن أن يفهم من الأولى أن أصحابها ذوو المستوى المتقدم في العلوم، بينما العامة مفتوحة للجمهور أو ذوي المستويات الدنيا في المستوى التعليمي، ولكن وجود مثل عطاء في العامة أمر يدعو للتساؤل فهو من أعلم أصحاب ابن عباس، بلا جدال، إلا إذا كان يعين ابن عباس ويقوم بدور يشبه دور المعيد. ونستبعد أن يكون تصنيف «العامة والخاصة» على أساس الحظوة والمكانة الاجتماعية.

على أية حال ليس لدينا تصور واضح عن الطريقة المتبعة في تنظيم مجالس ابن عباس سواء من حيث تنوع العلوم أو من حيث تصنيف مستويات الدارسين، فعبيد الله بن عتبة في حديثه السابق يذكر أن ابن عباس كان يخصص يوماً لكل فن، بينما حديث أبي صالح يذكر أن أهل كل فن يدخلون على ابن عباس بعد أهل الفن الآخر بالتتابع وفي اليوم نفسه. أما عطاء بن أبي رباح فيذكر «أن أصحاب القرآن في ناحية، وأصحاب الفقه في ناحية، وأصحاب الشعر في ناحية، وأصحاب الأنساب وأيام العرب في ناحية»(٨١). وربما أن ابن عباس كان يخصص مجالس للتعليم على أساس تحديد المستوى العلمي، ويخصص كل مجلس لفن من الفنون، ومجالس أخرى تكون مفتوحة يسأل فيها من يشاء عما يشاء.

لقد أسهم ابن عباس في بناء نهضة علمية بمكة تمثلت في تلك الصفوة من العلماء الأجلاء مثل عطاء بن أبي رباح ومجاهد بن جبر وسعيد بن جبير وعبيد الله بن أبي مليكة وطاووس وعكرمة وغيرهم، وقد توافد عليه العلماء من كل

بلدان المسلمين آنذاك، وأخذوا عنه العلم. وكان عامة الناس من أهل مكة وغيرهم يستفتونه فيما أشكل عليهم من أمور دينهم، وتتضح غزارة علم ابن عباس بكثرة المرويات عنه سواء كان ذلك في الحديث أو الفقه أو التفسير.

ولم يكتف طلاب العلم بمكة بالتتلمذ على ابن عباس ولكنهم حرصوا على الاستفادة من علماء الصحابة الآخرين مثل عبد الله بن عمر بن الخطاب (ت ٧٣هـ) وعبد الله بن عمرو بن العاص (ت ٦٣هـ)، وجابر بن عبد الله (ت ٧٨هـ) وغيرهم. وكان هؤلاء يترددون على مكة لأداء مناسك الحج أو العمرة، ويطيلون الإقامة فيها أحياناً. ومن الطبيعي أن يكونوا محل محبة وتقدير جميع الناس لصحبتهم رسول الله - ﷺ - أولاً، ولغزارة علمهم ثانياً. وكان الناس يقبلون عليهم، ويلازمونهم للاقتداء بهم، وسؤالهم عن أمور دينهم، وكان طلاب العلم يختصون بهم أكثر من غيرهم، وهم من جانبهم يخصون طلاب العلم بالعناية والرعاية، ويعطونهم من الوقت ما لا يعطونه لغيرهم. ومن صور هذا التلازم ما يفتي به عطاء بن أبي رباح عن وقت استلام الحجر في الطواف، يقول: «طفت مع جابر بن عبد الله ومع عبد الله بن عمرو بن العاص ومع ابن عباس ومع أبي سعيد الخدري فما رأيت منهم إنساناً استلمه حتى فرغ»(٨٢).
ويقول مرة أخرى: «رأيت عبد الله بن عمر وأبا هريرة وأبا سعيد الخدري وجابر بن عبد الله إذا استلموا الحجر الأسود قبَّلوا أيديهم»(٨٣).

ويقول أبو غالب مولى خالد بن عبد الله بن أُسَيِّد: كان ابن عمر ينزل علينا بمكة(٨٤). وكان الناس يغتنمون وجود ابن عمر بمكة، فيقول الأزرق بن قيس: كنت جالساً عند ابن عمر في المسجد الحرام والناس يسألونه(٨٥).
ويقول آخر: دخلت المسجد، وصليت مع ابن عمر العصر، ثم جلس وحلَّق

عليه أصحابه(٨٦). أما مجاهد بن جبر فيتحدث عن نفسه وعن زملائه فيقول: كنا مع عبد الله بن عمر في الطواف فنظر إلى رجل يطوف كالبدوي طويل مضطرب حجرة من الناس، فقال: أي شئ تصنع؟ قال: أطوف. قال: مثل الجمل تخبط ولا تستلم ولا تكبر ولا تذكر الله تعالى. . . ؟ !(٨٧).

ويظهر أن بعض طلاب العلم لا يتيسر له السؤال في حلقة ابن عمر، ربما من كثرة السائلين، فيغتنم أي مناسبة أخرى، فيروي صفوان بن محرز المازني البصري: «بينما نحن مع عبد الله بن عمر وهو يطوف بالبيت إذ عرض له رجل فقال: يا بن عمر! كيف سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول في النجوى؟ . .»(٨٨).

وكان طلاب العلم يظهرون كل ضروب الاحترام والتبجيل لهؤلاء العلماء، ويتشرفون بخدمتهم، يقول عطاء: كنت آخذًا بزمام راحلة عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ أقود به إلى البيت(٨٩).

وكانت مجالس العلم تعقد في أفياء المسجد الحرام، وتمتد الجلسات الصباحية حتى تصل الشمس إلى أصحاب الحلقة، فيقول عبيد بن عمير: «كنا جلوساً مع عبد الله بن عمرو بن العاص في الحجر إذ قلص الظل، وقامت المجالس. .»(٩٠).

أما الصحابي جابر بن عبد الله فقد جاور بمكة مرة ستة أشهر في بني فهر(٩١)، وكان طلاب العلم يأتون إليه ليأخذوا عنه الحديث، يقول عطاء: كنا عند جابر بن عبد الله فإذا خرجنا من عنده تذاكرنا حديثه، فكان أبو الزبير أحفظنا للحديث. ويقول أبو الزبير: كان عطاء يقدمني عند جابر أسأل لهم الحديث(٩٢).

وكان لابن الزبير (ت ٧٣هـ) إسهام طيب في الحركة العلمية في مكة، ومن ذلك أنه «كان يصلي الظهر، ثم يضع المنبر فيجلس عليه في العشر كلها - (أي: في عشر ذي الحجة) - فيما بين العصر والظهر فيعلم الناس الحج»(٩٣).

ولم يقتصر طلاب العلم بمكة على تلقي العلم على الذين يفدون إليهم بمكة لكنهم بدأوا يرحلون إلى العلماء في المدن الأخرى، فقد كان عطاء وأقرانه مثل مجاهد متناظرين في المستوى العلمي لكن لما رحل عطاء إلى المدينة، والتقى بعلمائها، وأخذ عنهم ثم عاد إلى مكة ظهر تفوقه عليهم(٩٤).

ولم تلبث هذه الطبقة من طلاب العلم أن تسلمت قيادة الحركة العلمية بمكة، ويأتي في مقدمتهم عطاء بن أبي رباح (٢٧ هـ - ١١٤هـ). وكان عطاء يمارس مهنة التعليم منذ مرحلة مبكرة فقد بدأ حياته العلمية معلم كُتّاب، واستمر على ذلك دهراً(٩٥)، لكنه بلغ من العلم مستوى يسمح له بالانتقال من تعليم الصغار ليتصدر حلقة في المسجد الحرام ليعلم ويفتي، وقد شهد له أساتذته بأنه كفء لهذه المسؤولية، فابن عمر قال عندما قدم مكة، وبدأ أهلها يلقون عليه أسئلتهم: «تجمعون لي المسائل وفيكم عطاء بن أبي رباح!»(٩٦).
أما ابن عباس فقال لطلاب العلم الذين يأتون إلى مجلسه: «يأهل مكة تجتمعون عليّ وعندكم عطاء!»(٩٧) وقد ورث مكانة أستاذه ابن عباس خاصة في الفقه، وكان يحض الناس على حضور حلقات الفقه، ويسميها «مجالس الذكر»، ولم يكن الفقه أخذ مصطلحه بعد، ويشرح عطاء مجالس الذكر فيقول: «مجلس الحلال والحرام، وكيف تصلي، وكيف تصوم، وكيف تنكح، وكيف تطلق، وتبيع وتشتري»(٩٨). وبالرغم من مشاركة زميله مجاهد له في هذا الموضوع فإنه تفوق على زميله. كما قيل: «انتهت فتوى أهل مكة إلى عطاء ومجاهد في

زمانها، وأكثر ذلك إلى عطاء»(٩٩). ومن ثم تفرد عطاء في الفتوى فقيل: «كانت الحلقة في الفتيا بمكة في المسجد الحرام لابن عباس، وبعد ابن عباس لعطاء بن أبي رباح»(١٠٠). ويقول أبو حازم الأعرج: «فاق عطاء أهل مكة بالفتوى»(١٠١). وقد شهد لتفوق عطاء ونبوغه العلمي وتقواه العلماء من البلدان، فمن المدينة يقول محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان: «ما رأيت مفتياً خيراً من عطاء بن أبي رباح...»(١٠٢)، ومن البصرة يقول قتادة بن دعامة: «كان عطاء من أعلم الناس بالمناسك»(١٠٣). ومن الكوفة يقول سلمة بن كهيل: «ما رأيت أحداً يريد بهذا العلم وجه الله غير هؤلاء الثلاثة: عطاء وطاووس ومجاهد»(١٠٤). ويقول أحد معاصريه: «أذكرهم في زمان بني أمية يأمرون في الحج منادياً يصيح: لا يفتي الناس إلا عطاء بن أبي رباح، فإن لم يكن عطاء فعبد الله بن أبي نجيح»(١٠٥).

وإذا كانت شهرة عطاء العلمية محل اعتراف وتقدير العلماء في البلدان الإسلامية فإنها أيضاً محل إكبار أهل البادية، فإن أحدهم دخل المسجد الحرام وسأل في الحلقات: أين أبو محمد؟ فأشار بعض الناس إلى سعيد بن جبير، والأعرابي يعرف أن وصف عطاء لا ينطبق على سعيد، فكرر السؤال: أين أبو محمد؟ فقال سعيد: ما لنا هاهنا مع عطاء شيء(١٠٦).

وحتى أصحاب المهن الوضيعة في مكة والذين لم يعيروا العلم كبير اهتمام أفادوا بشكل أو بآخر من علم عطاء. يقول الإمام أبو حنيفة النعمان (ت ١٥٠هـ): «أخطأت في خمسة أبواب من المناسك في مكة فعلمنيها حجام، فقلت له: من أين لك ما رأيتك أمرتني به؟ فقال: رأيت عطاء بن أبي رباح يفعل ذلك»(١٠٧).

ويظهر أنه بالإضافة إلى تفرد عطاء بالإفتاء كان له حق الإشراف على الحلقات العلمية، وبعض الوظائف الدينية في المسجد الحرام قال موسى الجهني: رأيت عطاء بن أبي رباح دعا بخمسة قصاص فقال: قصوا في المسجد الحرام. وهو جالس إلى إسطوانة، فكان خامسهم عمر بن ذر»(١٠٨). وعمر كوفي من تلاميذ عطاء ومجاهد، ويوصف بالفقيه القاص(١٠٩).

أما نشأة عطاء وحياته المبكرة فلا نعرف عنها إلا القليل، فيذكر بعض المصادر أنه من مولدي الجند باليمن، ونشأ بمكة(١١٠)- وهو الأشهر -، وهناك رواية أخرى تذكر أنه ولد بمكة في دار خالد بن العاص بن هشام وهي دار العلوج الحبش(١١١). وذكر أن والده نوبي كان يعمل المكاتل(١١٢). وقد بالغت المصادر في وصف دمامة خلقه، فقيل: إنه كان أسود أعور أفطس أشل أعرج ثم عمي بعد ذلك(١١٣). وقيل: إنه كان أصلع أرشح أفحج كأن أنفه بعرة أشد سواداً من است القدر. (١١٤).

ونشأته الاجتماعية الوضعية ودمامة خلقه لا تعنينا هنا إلا بالقدر الذي توضح به تغير القيم الاجتماعية، فعند ما سلك عطاء سبيل العلم، وأخلص له وسما به العلم، وأصبح محل احترام وتقدير كل الناس في مكة وفي الأمصار الإسلامية. ولم يكن عطاء محل تقدير الناس خاصتهم وعامتهم فحسب، بل إن بني أمية كانوا يجلونه ويقدرونه لعلمه وورعه وتقواه، فعندما دخل عطاء على عبد الملك بن مروان وهو على السرير قام إليه وأجلسه معه، وقعد بين يديه فوعظه عطاء(١١٥). وفي عصر عطاء الذي يتزاحم فيه الشعراء ورؤساء القبائل ووجوه الناس على أبواب الخلفاء من أجل الأعطيات والجوائز مقابل مديح كاذب ونفاق واضح، نجد عطاء يترفع ويسمو عن هذا السلوك، ويظهر أعلى

درجات النبل وتجسيد روح الجماعة في التعبير عن مطالب الأمة واحتياجاتها وما يصلحها وذلك في لقائه مع الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك في مكة : «. . فلما دخل عليه تزحزح له عن مجلسه ، فقال [عطاء] : يصلح الله أمير المؤمنين ، احفظ وصية رسول الله ـ ﷺ ـ في أبناء المهاجرين والأنصار . قال [الخليفة] : أصنع بهم ماذا ؟ قال : تنظر في أرزاقهم وأعطياتهم . ثم قال : احفظ وصية رسول الله ـ ﷺ ـ في أهل المدينة . قال : أصنع بهم ماذا؟ قال : تنظر في أرزاقهم وأعطياتهم . قال : ثم ماذا؟ قال : ثم أهل البادية تفقد أمورهم فإنهم سادة العرب . قال : ثم ماذا؟ قال : ذمة المسلمين : تفقد أمورهم ، وخفف عنهم من خراجهم فإنهم عون لكم على عدو الله وعدوكم . قال : ثم ماذا؟ قال : يصلح الله أمير المؤمنين ، ثم نهض . فلما ولّى قال سليمان : هذا والله الشرف لا شرفنا ، وهذا السؤدد لا سؤددنا . والله لكأنما معه ملكان ما يكلمني في شيئ فأقدر أن أرده ، ولو سألني أن أتزحزح له عن هذا المجلس لفعلت(١١٦)».

وهذا النص يبين مقام عطاء عند الناس وعند الخليفة ، وهو مع ذلك أيضاً يعكس حقيقتين أولاهما : التغير في القيم ، والتي أشرنا إليها آنفاً ، فالعلم بالدين والتقوى وقول الحق جعل عطاء سيداً يذعن لقوله الخليفة لمكانته عند الناس ، ولأنه يجسد مصلحة الأمة ، ولم يطلب شيئاً لنفسه ، والحقيقة الثانية : التغير الديموجرافي بمكة ، فدخول كثير من العناصر في الإسلام ، واستقرارها بمكة جعلتهم أصحاب كلمة فيها والمتحدثين باسم أهلها ، وهل يمكن أن يحدث مثل ذلك الموقف في عهد أبي جهل وأبي سفيان وصفوان بن أمية الجمحي وأمثالهم من «أهل النادي والبلد»؟ وإشادة الفاكهي بمكانة قريش في

مكة في هذا الزمن بالذات ـ وهو زمن ولاية خالد القسري على مكة ـ مسألة فيها نظر، يقول : «وكانت قريش بمكة أهل كثرة وثروة وأهل مقال في كل مقام، هم أهل النادي والبلد، وعليهم يدور الأمر وفي الناس يومئذ بقية ومسكة»(١١٧)، والذي يظهر لي أنه بطريقة لا شعورية ينعي الفاكهي ما آلت إليه أحوال قريش في القرن الثالث الهجري، فقريش موازنة بالقرن الأول الهجري ضاعت هيبتها وقل شأنها، ولم يعد لها قول في إدارة شئون مكة.

أما كيف يكسب عطاء رزقه فليست لدينا معلومات وافية عن هذا الموضوع، ولا نعرف عندما كان معلم كتاب هل كان يأخذ مقابل ذلك أجراً أو كان يقوم بهذا العمل احتساباً، وإن كنا نرجح أنه كان يتقاضى أجراً نظراً لرقة حاله.

وقد ذكر أنه كان يعيش بعدما أصبح مفتياً من «نيل السلطان وصلة الإخوان»(١١٨). وعندما رأى أحد جلسائه أن ملابسه رثة عرض عليه أن يعينه ببعض الثياب قال : «إنا لا نقبل إلا من الأمراء»، وفسرها الذهبي : «يريد بيت المال»(١١٩).

لقد نشأ نشأة فقيرة متواضعة لكنه عاش حياة خصبة غنية بالعلم، فحمله عنه الطلاب في مكة وفي جميع الأمصار الإسلامية، ومات وهو إمام وقدوة.

ومن أقران عطاء وزملائه مجاهد بن جبر (٢١ هـ ـ ١٠٢ هـ) الأسود مولى السائب بن أبي السائب المخزومي، وقد روى الحديث عن ابن عباس، وعنه أخذ القرآن والفقه، وروى الحديث أيضاً عن أبي هريرة وعائشة وسعد بن أبي وقاص وجابر بن عبد الله وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص وغيرهم(١٢٠). على أن مكانة مجاهد العلمية ترتكز على القرآن والتفسير لا على

الحديث والفقه، ومن أجلهما فقد لازم ابن عباس مدة طويلة، وكان من أخصائه، فأصبح أعلم أهل زمانه فيهما(١٢١)، ولقب بشيخ القراء والمفسرين(١٢٢). وإن كان عطاء يتفوق على مجاهد بالفقه فإن مجاهداً يتفوق على عطاء بالقرآن والتفسير(١٢٣).

وفي أخذ مجاهد القرآن عن ابن عباس لدينا روايتان، أولاهما: «عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين عرضة»(١٢٤)، والثانية: «عرضت القرآن على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته أقفه عند كل آية أسأله فيما نزلت وكيف نزلت»(١٢٥). ونحن نميل إلى الأخذ بالرواية الثانية لأنها أقرب إلى الواقع، ومن الصعب قبول الرواية الأولى على ظاهرها، فوقت ابن عباس لا يتسع لأن يعرض عليه تلميذ القرآن ثلاثين مرة، ولم يكن مجاهد من الغباء ليحتاج إلى ذلك، ولعل المقصود ثلاثين جلسة، أو أنه عرض كل جزء من أجزاء القرآن الثلاثين عرضه واحدة.

ولم يكتف مجاهد بالتتلمذ على ابن عباس وحده بل عرض القرآن أيضاً على مقرئ مكة عبد الله بن السائب المخزومي، ومعروف أن عبد الله بن السائب أخذ القرآن عرضاً عن أبي بن كعب. وعناية مجاهد بالقرآن الكريم تلاوة وتفسيراً استأثرت بالجزء الأكبر من اهتمامه العلمي، ومن ثم قللت من مشاركته في العلوم الأخرى، ومجاهد يدرك ذلك حيث قال: «استفرغ علمي القرآن»(١٢٦).

وقد شهد لتفوق مجاهد بالقرآن والتفسير علماء عصره فقال قتادة البصري: «أعلم من بقي بالتفسير مجاهد»(١٢٧). وقال سفيان الثوري الكوفي: «خذوا التفسير من أربعة: مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة أو الضحاك»(١٢٨).

وقد أخذ القراءة عن مجاهد خلق كثير، فمن المكيين عبد الله بن كثير الداري

(ت ١٢٠هـ) صاحب القراءة المعروفة، وقد خلف مجاهداً في القراءة(١٢٩)، وحميد بن قيس الأعرج المكي القارئ (ت ١٣٠هـ) عرض القرآن على مجاهد ثلاث عرضات(١٣٠)، وأصبح مقرئ مكة بعد ابن كثير الداري، وعكرمة بن خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة المخزومي(١٣١) (ت ١١٦هـ)، وزمعة بن صالح أبو وهب المكي(١٣٢)، ويسار أبو يحيى المكي(١٣٣). وروى عنه القراءة من أهل البصرة أبو عمرو بن العلاء(١٣٤) (ت ١٤٦هـ)، ومن أهل الكوفة عمر بن ذر (ت ١٥٦هـ)(١٣٥).

ونميل إلى الاعتقاد بأنه بجانب أخذ هؤلاء القراءة عن مجاهد فإنهم أخذوا عنه أيضاً شيئاً من التفسير، فالمتوقع أنه يقوم بعض الأحيان بتفسير بعض الآيات أو شرح سبب نزولها عندما يستدعي المقام ذلك. على أن ابن حبان البستي يقول في ترجمته للقاسم بن أبي بزة المكي(١٣٦) (ت ١٢٥ هـ): «ما سمع التفسير عن مجاهد أحد غير القاسم بن أبي بزة، نظر الحكم بن عتيبة، وليث بن أبي سليم، وابن أبي نجيح وابن جريج وابن عيينة في كتاب القاسم، ونسخوه، ثم دلّسوه عن مجاهد»(١٣٧). ومثل هذا القول يصعب قبوله، لأنه ليس من المعقول أن يكون لمجاهد هذا العدد الكبير من الطلاب خصوصاً في الدراسات القرآنية، ولا يروي عنه التفسير سوى واحد منهم.

ومع اعتراف علماء عصره وشهادتهم له بالتميز في القراءة والتفسير، إلا أن تفسيره لم يكن محل قبول من الكثير، والسبب في ذلك أنه كان يسأل أهل الكتاب في بعض الموضوعات، ويضمنها تفسيره. يقول الأعمش (ت ١٤٨هـ): «إنهم كانوا يتقون تفسير مجاهد لأنهم يرون أنه يسأل أهل الكتاب»(١٣٧ م). وأعطى راو آخر سبباً غير هذا وهو: «أنهم يرون أن مجاهداً

يحدث عن صحيفة جابر»(١٣٨).

وواضح من التراث المروي عن مجاهد في التفسير أنه أدخل فيه بعض المرويات التي تعود في أصلها إلى التراث اليهودي أو النصراني، وهو ما يسمى بالإسرائيليات. وهو في تفسيره يفسر أحياناً معنى الآية مثل تفسير قوله تعالى: ﴿ سَأَلَ سَآئِلٌ ﴾(١٣٩)، قال: دعا داع(١٤٠). وأحياناً يوضح الخلفية التاريخية مثل تفسيره قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا ﴾(١٤١)، الوليد بن المغيرة: ماله ألف دينار، وبنوه عشرة(١٤٢).

أما مثال ما نعتقد أنه نقله عن أهل الكتاب في تفسيره مما ليس له سند في السنة النبوية أو التراث العربي تفسيره للآية الكريمة: ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة﴾(١٤٣) الآية.

قال: كان فيمن قبلكم امرأة، وكان لها أجير، فولدت جارية، وقالت لأجيرها: اقتبس لنا ناراً، فخرج فوجد بالباب رجلاً، فقال الرجل: ما ولدت هذه المرأة؟ قال: جارية. فقال: أما إن هذه الجارية لا تموت حتى تبغي بمائة، ويتزوجها أجيرها، ويكون موتها بالعنكبوت. قال: فقال الأجير في نفسه: فأنا أريد هذه بعد أن تفجر بمائة! لأقتلنها، فأخذ شفرة فشق بطن الصبية، وخرج على وجهه، وركب البحر، وخيط بطن الصبية، وعولجت فبرأت وشبت، فكانت تبغي فأتت ساحلاً من سواحل البحر فأقامت عليه تبغي. ولبث الرجل ما شاء الله، ثم قدم ذلك الساحل ومعه مال كثير، فقال لامرأة من أهل ساحل البحر: ابغني امرأة من أجمل الناس، في القرية أتزوجها. فقالت: هاهنا امرأة من أجمل الناس ولكنها تبغي. قال: ائتيني بها. فأتتها فقالت: قد قدم رجل له مال كثير، وقال لي: كذا، فقلت كذا. فقالت: إني

قد تركت البغاء، ولكن إن أراد تزوجته. قال: فتزوجها فوقعت منه موقعاً. فبينا هو يوماً عندها إذ أخبرها بأمره. فقالت: أنا تلك الجارية، وأرته الشق في بطنها، وقد كنت أبغي فما أدري بمائة أو أقل أو أكثر. قال: فإنه قال لي: يكون موتها بالعنكبوت. قال: فبنى لها برجاً بالصحراء وشيده. فبينا هما يوماً في ذلك البرج إذ عنكبوت في السقف، فقال: هذا عنكبوت. فقالت: هذا يقتلني! لا يقتله أحد غيري، فحركته فسقط، فوضعت إبهام رجلها عليه فشدختـه، وساخ سمها بين ظفرها واللحم، فاسودت رجلها فماتت، فنزلت هذه الآية. ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾(١٤٤).

ونحن لا نعرف على وجه اليقين من أين استقى مجاهد هذه الأساطير، فهل رواها شفاهاً عن أشخاص من أهل الملتين، أو عن مسلمين كانوا في الأصل يهوداً أو نصارى مثل كعب الأحبار، أو عن مسلمين لهم معرفة واسعة بأساطير هاتين الديانتين مثل وهب بن منبه؟ والاعتقاد يسود بأن مكة أبعد البلدان تأثراً بأهل الكتاب لأنه لا يسمح لهم بالإقامة فيها، ولكن مجاهداً كان كثير التنقل والأسفار، والظاهر أنه يحاول دائماً إشباع فضوله العلمي مهما كلفه ذلك من مشقة، فقد ذهب إلى بئر برهوت بحضرموت، وذهب إلى بابل، وطلب من واليها، - وكان صديقاً له -، ان يعرض عليه هاروت وماروت(١٤٥). ويبدو أنه رحل إلى الكثير من البلدان، وحاول أن يطلع على ما فيها من عجائب. ومن الذين كانوا أصلاً من أهل الكتاب تبيع بن عامر الحميري (ت ١٠١هـ) ابن امرأة كعب الأحبار، أسلم في أيام أبي بكر وعمر، ويقال له تبيع صاحب الملاحم، قرأ الكتب، ونظر في سير الأولين، وسمع من كعب علماً كثيراً، وكان على علاقة وثيقة بمجاهد ورفيقه في الغزو في قبرص، وروى عنه مجاهد،

وعرض هو القرآن على مجاهد(١٤٦).

وكان لمجاهد حظ من رواية الحديث أيضاً، وملازمته لعبد الله بن عمر الذي اشتهر بـالحديث أكثر من أي علم آخر تعكس ذلك، وكـان ابن عمـر يكن احتراماً كبيراً لمجاهد تقديـراً لعلمه، يقول مجاهد: «كنت أصحب ابن عمر في السفر فإن أردت أن أركب يأتيني فيمسك ركـابي فإذا ركبت سوى ثيابي»(١٤٧). وقال أيضاً: «صحبت ابن عمر وأنـا أريد أن أخدمه فكان يخدمني»(١٤٨). أما ابن عمر فقال له: «وددت أن ابني سالماً وغلامي نافعاً يحفظان حفظك»(١٤٩).

كما أن مجاهداً يـأتي بالمرتبـة الثانية بعـد عطاء في الفقـه إذ أن فتوى أهـل مكة انتهت إليهما بعد ابن عباس(١٥٠)، ومن أمثلة فتوى مجاهـد ما رواه تلميذه حميد بن قيس المكي قال: «كنت مع مجاهد وهو يطوف بالبيت فجاءه إنسان فسأله عن صيام أيام الكفارة: أمتتابعات أم يقطعها؟ قال حميد: فقلت: نعم يقطعها إن شـاء. قال مجاهد: لا يقطعها، فإنها في قـراءة أبي بن كعب: (ثـلاثة أيـام متتابعات)...»(١٥١).

والخلاصة أن مجاهداً أسهم إسهـاماً فعالاً في النهوض بـالحركـة العلمية بمكة وغيرها، وتمثل إسهامه في تعليمه قراءة القرآن وتفسيره والفقه والحديث.

وهناك علم من طبقة عطاء ومجاهد نفسها ذلكم هو عكرمة البربري مولى ابن عبـاس (ت ١٠٥هـ). وكـان في الأصل مـولى للحصين بن أبي الحر العنبري فوهبه لابن عباس عندما كان أميراً على البصرة(١٥٢).

وكان ابن عباس يعنى بتعليم جميع مواليه. ويـروي عكرمة جانباً من أسلوب ابن عبـاس في تأديبه وإجبـاره على التعلم: «كـان يجعل في رجلي الكبل يعلمني القرآن، ويعلمني السنـة»(١٥٣). وبسبب من عنـايـة ابن عبـاس بـه، وطـول

ملازمته لمجالس ابن عباس - ولا بد أنه كان يملك التأهيل الشخصي المطلوب - فقد وصل إلى مستوى علمي جعل سيده يأذن له بأن يفتي الناس فقال له: «انطلق فأفت الناس، وأنا لك عون. . . فمن جاءك يسألك عما يعنيه فأفته، ومن سألك عما لا يعنيه فلا تفته، فإنك تطرح عنك ثلثي مؤنة الناس»(١٥٤).

وعكرمة مثل زميليه عطاء ومجاهد برّز في أهم علوم عصره وهي الحديث والتفسير والفقه، ولكن يبدو أن اهتمامه بالتفسير والسيرة والمغازي يفوق اهتمامه بالحديث والفقه، أو أن ما خلف من تراث في هذين الأخيرين لم يكن محل قبول كثير من الأجيال اللاحقة وربما حتى من جيله هو، ومن ثم اطرحوا الكثير من مروياته وآرائه فيهما. وقد شهد له بالتبريز في التفسير علماء عصره فقال الشعبي (ت ١٠٥هـ): «ما بقي أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة»(١٥٥). وقال قتادة: «أعلم الناس بالتفسير عكرمة»(١٥٦). وقال هو نفسه: «لقد فسرت ما بين اللوحين»(١٥٧). وفي أحد المجالس أقبل عليه زميلاه سعيد بن جبير ومجاهد يلقيان عليه التفسير، فلم يسألاه عن آية إلا فسرها لهما، فلما نفد ما عندهما، جعل يقول: أنزلت آية كذا في كذا، وأنزلت آية كذا في كذا(١٥٨).

أما عن علمه في السيرة والمغازي فقال عنه عمرو بن دينار (ت ١٢٦هـ): «كنت إذا سمعت عكرمة يحدث عن المغازي كأنه مشرف عليهم ينظر كيف كانوا يصنعون ويتقاتلون»(١٥٩). وقال قتادة: «كان عكرمة أعلمهم بسيرة النبي - ﷺ -»(١٦٠).

أما عن تفوقه في ميدان السيرة والمغازي فالتراث المنسوب إليه والذي وصل إلينا لا يؤيد المقولات السابقة، فالمحفوظ له من الروايات في هذا الميدان عند الواقدي في كتابه «المغازي» لا يتجاوز ثماني عشرة رواية، وابن هشام في «السيرة»

يحفظ له أربع عشرة رواية . ولعل أكثر المصادر حفظاً لروايات عكرمة في السيرة والمغازي الطبري في «تاريخه» ففيه تسع وعشرون رواية . على أن الروايات المحفوظة لعكرمة في هذه المصادر لم تكن كلها تاريخية فبعضها يتعلق بالتفسير، وبعضها يتعلق بتحديد بعض أماكن مشاعر الحج والباقي روايات تاريخية .

واختلفت الآراء حول عكرمة أشد الاختلاف بين مادح وقادح ، ويبدو أن جوانب من سلوكه جعلت البعض يستهجنونها ويتحرجون في توثيق رواياته ، قال ابن سعد :(١٦١) «وكان عكرمة كثير الحديث والعلم بحراً من البحور، وليس يحتج بحديثه ، ويتكلم فيه» . ولعل ذلك يعود إلى أمور أربعة تضافرت فحملت الناس على أن يحملوا عنه هذه النظرة السلبية ، أولها : أنه كان كثير التنقل والأسفار بين الأمصار الإسلامية بدافع التكسب بعلمه ، وبصحبته لابن عباس ، فقد أجازه عامل المدائن بثلاثة آلاف درهم(١٦٢) . وذهب إلى مرو للسبب(١٦٣) ولما عاتبه أحد المكيين وقال : تركت الحرمين ، وجئت إلى خراسان! قال : أسعى على بناتي(١٦٤) . وعندما قيل له مثل ذلك في سمرقند قال : جاءت بي الحاجة .(١٦٥) وقد ارتحل إلى اليمن والشام ومصر والمغرب . وقد قال معاصره طاووس : «لو أن مولى ابن عباس هذا اتقى الله ، وكفّ من حديثه لشدت إليه المطايا»(١٦٦) .

وثانيها : زعم بعض معاصريه أنه كان يرى رأي الخوارج ، وأنه وفد على نجدة بن عامر الحنفي ـ قتل ٦٩هـ ـ زعيم الخوارج النجدات ، وأنه كان ينشر آراءه ، وأقام عنده ستة أشهر ، فلما عاد إلى سيده ابن عباس قال : قد جاء الخبيث(١٦٧) . كما يروى أنه هو الذي نشر مذهب الخوارج الصفرية في أفريقية(١٦٨) . ويروى عن عطاء أنه قال : كان عكرمة إباضياً(١٦٩) . على أن

هناك من العلماء من نفى عنه اتباعه للمذهب الخارجي مثل البخاري والنسائي، فقد قال البخاري: ليس أحد من أصحابنا إلا وهو يحتج بعكرمة(١٧٠).

وثالثها: أن هناك من العلماء حتى من زملائه ومعاصريه من يرى أنه كان يكذب في الرواية عن ابن عباس(١٧١).

ورابعها: أنه كان صاحب دعابة، وقد يسف في دعابته أحياناً لدرجة تسقط احترامه وهيبته(١٧٢).

وبالرغم من كل الأقوال والآراء السيئة في عكرمة فقد روى عنه عالم كثيرون ذكرتهم المصادر التي ترجمت له، وتميز من بين هذه المصادر ابن أبي حاتم في تصنيف الرواة عن عكرمة حسب أمصارهم(١٧٣).

ومن الذين أسهموا في الحركة العلمية في القرن الأول الهجري في مكة وغيرها سعيد بن جبير، ولا نعرف شيئاً عن نشأته وصباه، وأول معرفة لنا به تبدأ عندما اتصل بابن عباس وسأله: ممن أنت؟ قال: من بني أسد. قال: من عربهم أو مواليهم؟ قال: من مواليهم. قال: فقل: أنا ممن أنعم الله عليه من بني أسد(١٧٤). ووصف سعيد بأنه كان أسود اللون(١٧٥).

ويظهر أنه لازم ابن عباس مدة طويلة قبل أن يفقد ابن عباس بصره وبعدما فقده، فيذكر أنه كان يسائل ابن عباس قبل أن يعمى، ولم يستطيع أن يكتب معه، فلما عمي ابن عباس كتب معه فبلغ ذلك ابن عباس فغضب(١٧٦). ويقول: ربما أتيت ابن عباس فكتبت في صحيفتي حتى أملأها، وكتبت في نعلي حتى أملأها، وكتبت في كفي حتى أملأها، وربما أتيته فلم أكتب حديثاً حتى أرجع لا يسأله أحد عن شئ(١٧٧). ويبدو أن اهتمامات سعيد العلمية تتركز بصفة رئيسة على الفقه والتفسير حيث إن أكثر أسئلته لابن عباس في

هذين الموضوعين(١٧٨)، وقد قرأ على ابن عباس أيضاً القرآن، وأخذ عنه الحديث، كما أنه أخذ الحديث عن عدد آخر من الصحابة(١٧٩).

وعندما سأل سعيداً أحدُ تلاميذه: أكل ما أسمعك تحدث سألت عنه ابن عباس؟ فقال: لا، كنت أجلس ولا أتكلم حتى أقوم فيتحدثون فأحفظ(١٨٠). وبلغ سعيد بملازمته التعلم على ابن عباس درجة جعلت ابن عباس يأمره بأن يحدث، فقال سعيد: أحدث وأنت هاهنا! فقال: أو ليس من نعمة الله عليك أن تحدث وأنا شاهد، فإن أصبت فذاك، وإن أخطأت علمتك(١٨١). ولعله يمكن أن يفهم من هذا النص أن المقصود د ليس رواية الحديث فحسب ولكن يشمل تعليم الفتوى أو الفقه، وربما شيئ من التفسير.

ويأتي ابن عمر في المرتبة الثانية من حيث الأستاذية لسعيد، وربما أن سعيداً قوى صلته بابن عمر بعد وفاة أستاذه ابن عباس. وكان سعيد يسأل ابن عمر، ويدون الإجابات خفية دون علم ابن عمر لأنه كان لا يقر الكتابة(١٨٢).

وبعد أن شعر سعيد بأنه بلغ مستوى من التحصيل العلمي يوجب عليه أن يقوم بنشره ترك مكة، وبدأ يطوف الأمصار الإسلامية، وتنقل بين العراق وفارس وأصبهان وأذربيجان وغيرها، ثم استقر به المقام بالكوفة. وكان ـ بالإضافة إلى حرصه على نشر علمه ـ يبحث له عن دور في المجتمع والحياة يليق بمكانته العلمية. وكان محل التقدير والإكرام في جميع البلدان التي سكنها، وأقبل عليه طلاب العلم فمنهم من أخذ عنه الحديث، ومنهم من أخذ عنه القرآن والتفسير، ومنهم من أخذ عنه الفقه. وكان إضافة إلى ذلك يقص على أهل الكوفة في مسجدهم فيذكرهم ويعظهم. ولم يقتصر الاحتفاء بسعيد على طلاب العلم وعامة الناس بل حتى الولاة ينزلونه المنزلة اللائقة به، فيروى أن الحجاج بن يوسف والي العراق أعطاه مائة ألف درهم(١٨٣)، كما أنه عهد إليه

ببعض الأعمال الحكومية كان آخرها بأن جعله مسئولاً عن عطاء الجند حين وجه عبد الرحمن بن الأشعث لقتال رتبيل(١٨٤).

وقد شهد له أساتذته بقدرته العلمية فكان ابن عباس إذا أتاه بمكة أهل الكوفة، يسألونه قال: تسألوني وفيكم ابن أم دهماء!(١٨٥) وبعد وفاة ابن عباس كان سعيد يجمع المسائل التي تكون موضع خلاف بين علماء الكوفة ويعرضها على ابن عمر عندما يلقاه بمكة(١٨٦). وكان كثير التردد على مكة فكان يحرم كل سنة مرتين مرة للحج، ومرة للعمرة(١٨٧). على أن أستاذه ابن عمر يرى أنه أعلم منه في بعض الفروع العلمية، فعندما جاء رجل وسأله عن فريضة فقال: ائت سعيد بن جبير فإنه أعلم بالحساب مني وهو يفرض منها ما أفرض(١٨٨).

وحرص سعيد على نشر علمه يتمثل في قوله: «لأن أنشر علمي أحب إلي من أن أذهب به إلى قبري»(١٨٩). وقوله: «وددت أن الناس أخذوا ما عندي فإنه مما يهمني»(١٩٠). وقال أحد معاصرية: «رأيت سعيد بن جبير يطوف بالبيت يحدث أصحابه ويفتي»(١٩١). وفي ظروف كان المفروض فيها أن يختبئ سعيد ولا يظهر للناس، إلا أنه لم يستطع مقاومة رغبته في نشر العلم فعندما هرب من الكوفة خوفاً من الحجاج، ولجأ إلى مكة بعد فشل ثورة ابن الأشعث (٨٢هـ) جلس فيها يفتي الناس(١٩٢).

قُبض على سعيد بن جبير في مكة سنة ٩٥هـ، وأعيد إلى الحجاج في العراق فأعدمه مع أعداد هائلة من المشاركين في حركة تمرد ابن الأشعث(١٩٣)، وترك إعدام سعيد خاصة حزناً وأسى في نفوس عامة المسلمين وخاصتهم، وكان من الأمور التي زادت نقمة الناس على الحجاج والأمويين، ونعاه معاصروه من العلماء منهم ميمون بن مهران قال: «لقد مات سعيد بن جبير، وما على ظهر الأرض رجل إلا يحتاج إلى سعيد»(١٩٤). وقال إبراهيم النخعي: «رحمه الله ما

خلف مثله»(١٩٥).

لقد كانت حياة سعيد غنية وجهوده في نشر العلم مثمرة فخلف طلاباً وتراثاً في معظم البلدان الإسلامية. أما تراثه المحفوظ فهو يجمع بين الحديث والفقه والتفسير، على أنه لم يسلم مثل بعض علماء عصره من المكيين من الاقتباس مما يسمى بالإسرائيليات(١٩٦).

الملاحظ أن علماء مكة الأربعة الذين تناولناهم بالدراسة كانوا من الموالي أي من الطبقة الاجتماعية الدنيا في المجتمع المكي، وهي ظاهرة تسترعي الانتباه. ولعل حرصهم على التعليم، وتفوقهم في هذا الميدان على القرشيين خاصة والعرب عامة يمكن أن يفسر بأن دوافعهم كانت، ـ في البداية ـ، الرغبة في تحسين أوضاعهم المعيشية ورفع منزلتهم الاجتماعية. ولعل أسيادهم لم يكونوا أقل حرصاً منهم على تعليمهم إما بدافع الاحتساب ـ وهو الغالب ـ أو بدافع المنفعة. ومجاهد يؤكد هذا الرأي بقوله: «طلبنا العلم ومالنا فيه نية، ولكن رزق الله النية بعد»(١٩٧). ويقول سلمة بن كهيل: «ما رأيت أحداً يريد بهذا وجه الله إلا هؤلاء الثلاثة: عطاء ومجاهد وطاووس»(١٩٨).

وممن أسهم في الحركة العلمية بمكة من القرشيين عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة (ت ١١٧هـ) وهو من أحفاد الزعيم القرشي الجاهلي المشهور عبد الله ابن جدعان. ويقول عن نفسه: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ـ ﷺ ـ(١٩٩). وقد أخذ علمه عن عدد كبير من هؤلاء الصحابة ومن التابعين خاصة المكيين. ويظهر من استقراء من روى عنهم الحديث أنه لم يسافر إلى البلدان الإسلامية الأخرى سواء لطلب العلم أو لنشره أو للتكسب(٢٠٠)، وقد وصف بأنه ثقة كثير الحديث(٢٠١)، وروى عنه الحديث كثير من أهل زمانه من أهل مكة ومن الواردين عليها(٢٠٢).

وكان كثير الملازمة لابن عباس، ولما ولاه ابن الزبير قضاء الطائف ـ ربما بسبب كونه قرشيا وتيمياً بالذات أخوال عبد الله بن الزبير ـ قال قلت لابن عباس: «إن هذا قد بعثني على قضاء الطائف ولا غنى بي عنك أسألك؟ فقال لي: نعم، فاكتب إليّ فيما بدا لك أو سل عما بدا لك»(٢٠٣). ويظهر أن ابن الزبير ولاه على قضاء مكة بعد ذلك(٢٠٤). ومن القضايا التي أشكل القضاء فيها على ابن أبي مليكة وهو قاضي الطائف فأرسل إلى ابن عباس يسأله قال: «رفع إلى امرأتان كانتا في بيت تحوزان، فادعت إحداهما أنها طعنتها في يدها، وقوم في بيت آخر سمعوا حيث نادت، فوجدوهما جميعاً في بيت فكتبت إلى ابن عباس أسأله عن ذلك فقال: إنه لا يقضى في مثل هذا إلا بالرؤية، ولكن ادع بالتي أُدْعِي عليها فاقرأ عليها: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾(٢٠٥) الآية، ثم استحلفها، فقرأت عليها الآية ثم ذهبت استحلفها، فأبت أن تحلف فأقرت(٢٠٦)».

وروى ابن أبي مليكة قضية ثانية عرضت له وهو قاض في الطائف، وسأل عنها المقدمين في الفقه في مكة ونصها: «إن عبدين عدوا ـ وهو عامل الطائف ـ على خمار امرأة، فسألتُهما، فقالا: حملنا عليه الجوع، واضطررنا إليه. فكتبتُ فيهما إلى ابن عباس، وعبيد بن عمير، وعباد بن عبد الله بن الزبير. فكتب عباد: أن اقطعهما. وكتب عبيد بن عمير: أن قد أحل الميتة والدم ولحم الخنزير لمن اضطر. وكتب ابن عباس: أن قد أصبت، لا تقطعهما وغرم سادتهما ثمن الخمار وإن كان بهما جلد فاجلدهما لئلا يعتل العبد بالجوع»(٢٠٧).

وقد أرسل ابن أبي مليكة إلى ابن عباس يسأله عن جواز قبول شهادة الصبيان فأجابه: لا أرى أن تجوز شهادتهم، أمر الله بمن يرضى وأن الصبي لا يرضى(٢٠٨).

ونختم الحديث عن رجال هذه الطبقة بأبي الزبير محمد بن تدرس المكي (ت ١٢٨هـ) مولى حكيم بن حزام .

واهتمامات أبي الزبير المكي تكاد تتركز على رواية الحديث ومعظمها عن الصحابي جابر بن عبد الله ، ويظهر أنه كان كثير الملازمة له عندما يأتي إلى مكة ويقيم فيها ، وكان يعتمد على الكتابة مثل اعتماده على الرواية الشفوية . يقول الليث : قدمت مكة فجئت أبا الزبير فدفع إليّ كتابين ، وانقلبت بهما ، ثم قلت في نفسي : لو عاودته فسألته : أسمع هذا كله من جابر؟ فرجعت فسألته ، فقال : منه ما سمعته منه ، ومنه ما حدثت عنه . فقلت له : أعلم لي ما سمعت ، فأعلم لي على هذا الذي عندي(٢٠٩) .

ولم يكن لأبي الزبير حسب ما اطلعنا عليه من مصادر نشاط يذكر في التفسير أو الفتوى ، وإسهامه العلمي أقل بكثير من أقرانه مثل عطاء ومجاهد ، إضافة إلى ما يروى من بعض الهنات في سلوكه والتي دعت بعض رجال الحديث إلى التوقف في الرواية عنه(٢١٠) ، مع أن ابن سعد قال عنه : كان ثقة كثير الحديث(٢١١) .

وتمثلت المرحلة العلمية الثالثة بمكة بالدراسات القرآنية ، ودراسات الفقه والحديث . أما الدراسات القرآنية فكان عمادها طلاب عبد الله بن السائب المخزومي وعبد الله بن عباس ومجاهد بن جبر ، وقد تخصص هؤلاء الطلاب في قراءة القرآن ، وتلقاها بعض عن البعض الآخر ، واشتهروا بها ليس في مكة فحسب ولكن في كل الأمصار الإسلامية ، ويأتي في طليعة هذه المدرسة عبد الله بن كثير الداري (٤٨ هـ ـ ١٢٠هـ) . ولد بمكة وعاش فيها ، وهو مولى لبني علقمة الكنانيين ، والظاهر أنه ولاء حلف لا ولاء عتاقة لأن أصل عبد الله من أبناء الفرس الذين كانوا حكاماً باليمن قبل الإسلام ، ولا نعرف متى انتقلت

أسرته إلى مكة. وقد كان عبد الله عطاراً، ومن هذه المهنة جاءت نسبته الداري، لأن العرب كانت تنسب من يبيع العطر إلى دارين الجزيرة المشهورة على الخليج العربي في استيراد وبيع الطيب في العصر الجاهلي(٢١٢).

ولعبد الله مشاركة في رواية الحديث لكنه مقل في هذا الشأن، وقد روى الحديث عن ابن الزبير وبعض التابعين المكيين(٢١٣).

ومكانة عبد الله العلمية تقوم أساساً على أنه مقرئ مكة في عصره، وله قراءة معروفة به(٢١٤). وقد أخذ القراءة على أول مقرئ في مكة عبد الله بن السائب المخزومي صاحب أبي بن كعب، ولكن المشهور أخذه القرآن على مجاهد، ودرباس مولى ابن عباس(٢١٥). ويظهر أن تتلمذ عبد الله على مجاهد اقتصر على تلاوة القرآن فلا نلحظ له مشاركة في التفسير رغم شهرة أستاذه في هذا الميدان.

وكان من عادة دارسي القرآن في ذلك العصر أنهم يقرأون القرآن على أكثر من قارئ، ويعرضون عليهم القرآن. يروي أحد تلاميذ عبد الله وهو أبو عمرو بن العلاء البصري: «ختمت على مجاهد وعلى ابن كثير، وكان ابن كثير أعلم بالعربية من مجاهد»(٢١٦).

ومن تلاميذ عبد الله الذين أخذوا القراءة عنه، والذين أصبحوا مقرئين على طريقته وتسمى «قراءة أهل مكة» إسماعيل بن عبد الله القسط، وإسماعيل بن مسلم، وجرير بن حازم، والحارث بن قدامة، وحماد بن سلمة، وحماد بن زيد، ومعروف بن مشكان، وزمعة بن صالح أبو وهب المكي(٢١٧)، وشبل بن عباد وهو الذي خلفه في القراءة والإقراء(٢١٨)، وهشام بن إسماعيل الخزومي.

ولم يكن عبد الله قارئاً فحسب فقد كان قاص الجماعة يساعده على ذلك فصاحته وقدرته العالية في الوعظ والتأثير على سامعيه(٢١٩).

وقد ظل عبد الله الإمام المجتمع عليه في القراءة بمكة حتى وفاته سنة ١٢٠هـ(٢٢٠).

ولأهل مكة عادة في قراءة القرآن ينفردون بها عن غيرهم من أهل الأمصار الأخرى، وهي أنهم عندما يبلغ قراؤهم في قراءتهم سورة (والضحى) يكبرون حتى يختموا(٢٢١). ومن عاداتهم أيضاً إذا ختموا القرآن بالتلاوة ابتدأوا وقرأوا الفاتحة وخمس آيات من أول سورة البقرة إلى (أولئك هم المفلحون)، ثم يقطعون القراءة. ويسمون فاعل ذلك «الحال المرتحل» أي: ختم القرآن وابتدأ بأوله ولم يفصل بينهما بزمان. وقيل: أراد بالحال المرتحل: الغازي الذي لا يقفل من غزو إلا أعقبه بآخر(٢٢٢).

ومن معاصري ابن كثير واشتهر في القراءة حميد بن قيس الأعرج المكي - ت ١٣٠هـ - مولى آل الزبير بن العوام. أخذ القراءة عن مجاهد، وعرض عليه ثلاث مرات، ثم تصدر للإقراء بعد ذلك، ولم يكن بمكة بعد ابن كثير أحد أقرأ منه(٢٢٤).

وإذا كان حميد بن قيس يأتي بعد ابن كثير في القراءة فإنه كان أعلم أهل مكة في الحساب والفرائض، وكان بالإضافة إلى قراءة القرآن ثقة كثير الحديث(٢٢٥).

وكان حميد يقرأ في المسجد الحرام، ويجتمع الناس عليه حين يختم القرآن، ومن الذين حضروا إحدى ختماته عطاء بن أبي رباح(٢٢٦).

روى القراءة عنه عرضاً أبو عمرو بن العلاء وسفيان بن عيينة وجنيد بن عمرو العدواني وآخرون(٢٢٧). وبالإضافة إلى أستاذيته في القراءة والفرائض فقد كان من رواة الحديث وأخذه عنه جماعة من التلاميذ(٢٢٨).

وهناك قارئٌ ثالث معاصر لابن كثير وابن قيس هو محمد بن عبد الرحمن بن محيصن السهمي المكي المقرئ (ت ١٢٣هـ)، وشاركهما في أخذ القراءة عن

مجاهد ودرباس مولى ابن عباس، كما أخذ القراءة أيضاً عن سعيد بن جبير(٢٢٩). وقد كانت شهرته أقل منهما ربما لأن قراءته شاذة وفيها ما ينكر. قال ابن مجاهد: «كان لابن محيصن اختيار في القراءة على مذهب العربية فخرج به عن إجماع أهل بلده، فرغب الناس عن قراءته وأجمعوا على قراءة ابن كثير لاتباعه»(٢٣٠).

وهناك موضوع أكد الرواة على تفوقه فيه وهو علم العربية، وهو موضوع قلما ألقت اليه المصادر التي عنت بتسجيل الحياة العلمية بمكة في القرن الأول الهجري بالاً. وقد نقل الجزري(٢٣١) شهادات عدد من العلماء على تفوق ابن محيصن في العربية منها: قال ابن مجاهد: كان ابن محيصن عالماً بالعربية. قال أبو عبيد: كان ابن محيصن أعلمهم بالعربية وأقواهم، وقال أبو حاتم: ابن محيصن من قريش وكان نحوياً.

وهذه الأقوال تؤكد أنه كان هناك اهتمام باللغة العربية بل حتى النحو كان موضوع اهتمام ودراسة بمكة في ذلك العصر.

وينتمي إلى مدرسة القرآن بمكة رجال كثيرون منهم من كان معاصراً لهؤلاء لكنه لم يصل إلى مرتبتهم، ومنهم من أخذ القراءة عليهم، وخلفهم في قراءة القرآن.

ومثلما توسعت الدراسات القرآنية في المرحلة العلمية الثالثة بمكة فإن الدراسات الفقهية ورواية الحديث كانت أكثر توسعاً، فالمشتغلون فيهما كانت أعدادهم كبيرة جداً، وذلك يعود إلى عاملين أولهما: الجهود الخيرة التي بذلها علماء المرحلة الثانية وهم ابن أبي رباح وجيله، والثاني: الإقبال الكبير من جانب عدد كبير من الناس على الاشتغال في العلم لدوافع مختلفة، ولكن بالرغم من كثرة طلاب العلم في هذه المرحلة فإن أحداً منهم لم تجاوز شهرته

حدود مكة باستثناء عالم واحد ذلك هو عمرو بن دينار (٤٦ هـ ـ ١٢٦هـ) مولى بني جمح. قال أحمد بن حنبل: كان مولى هؤلاء ولكن الله شرفه بالعلم(٢٣٢)، ولقد أخذ العلم عن عدد من صغار الصحابة الذين أدركهم مثل ابن عباس وابن عمر وأبي هريرة والمسور بن مخرمة، وغيرهم كما أخذ عن تابعي مكة مثل عبيد بن عمير وعطاء بن أبي رباح وسعيد بن جبير، وأخذ عن تابعي المدينة مثل أبي سلمة بن عبد الرحمن، وأخذ عن تابعي اليمن خاصة طاووس بن كيسان، وأخذ عن تابعي البصرة مثل أبي الشعثاء جابر بن زيد كما وصف بأنه من أئمة العلم والاجتهاد(٢٣٣). وقد جزأ الليل ثلاثة أجزاء: ثلثاً ينام، وثلثاً يدرس حديثه، وثلثاً يصلي(٢٣٤).

وبالرغم من وصف ابن سعد له بأنه ثقة ثبت كثير الحديث فإنه يقول أيضاً: كان عمرو يحدث بالمعاني وكان فقيهاً(٢٣٥). ويمكن فهم هذا بأن عمراً كان يستنبط الأحكام من الأحاديث، ولا يحرص على إيراد نصوصها، إذ الغاية من ناحية فهم مضمون الحديث، ومن ناحية أخرى خشية ألا يورد المتن بلفظه. وكان متفانياً في أداء رسالته العلمية ونشرها بين طلاب العلم، يقول عنه تلميذه شعبة: «جلست إلى عمرو بن دينار خمسمائة مجلس، فما حفظت عنه سوى مئة حديث، في كل خمسة مجالس حديثاً»(٢٣٦).

وكان عمرو من أكثر الناس ملازمة لعطاء، وأكثر الطلاب حفظاً لفقه عطاء وآرائه فقالوا بأنه أثبت الناس في عطاء(٢٣٧)، أما عطاء فعندما سأله طلابه حين حضرته الوفاة وقالوا له: بمن تأمرنا؟ قال: بعمرو بن دينار(٢٣٨). وكان طلاب عمرو حريصين على تسجيل كل شئ يقوله، وكان هذا مدعاة غضبه، خصوصاً أنه كان يغلب عليه الفقه، وهذا يستدعيه استنباط الأحكام من القرآن ومن الحديث الشريف، وهذه مسألة تستوجب إعمال الرأي، وهذه في

حد ذاتها عملية اجتهادية معرضة للخطأ والصواب. ويقول محتجاً على طلاب العلم الذين يسارعون إلى تقييد ما يقول: «يسألوننا عن رأينا فنخبرهم فيكتبونه كأنه نقر في حجر، ولعلنا أن نرجع عنه غداً»(٢٣٩).

وقد وصفه الذهبي بقوله: «شيخ الحرم في زمانه وكان من أوعية العلم وأئمة الاجتهاد»(٢٤٠). وتذكر المصادر أنه بعد وفاة عطاء قال له أمير مكة محمد بن هشام بن إسماعيل بن هشام المخزومي: «أجري عليك رزقاً وتجلس تفتي الناس؟ قال: قلت: لا أريده»(٢٤١). وربما أن هذا الرفض كان مؤقتاً في وقت إمرة محمد بن هشام أو الرفض لأخذ الرزق، لأن مصادرنا تذكر أنه كان مفتي مكة، فلما مات كان يفتي بعده ابن أبي نجيح(٢٤٢).

ويظهر أن علماء مكة بدأوا في مطلع القرن الثاني الهجري يتطلعون لمنافسة علماء المدينة الذين طالما تفوقوا عليهم، فكان عمرو بن دينار يرى نفسه أعلم من الزهري (ت ١٢٤هـ) وقال: أي شئ عند الزهري؟ أنا لقيت ابن عمر ولم يلقه، ولقيت ابن عباس ولم يلقه. فقدم الزهري مكة بعد ما هرم عمرو فقال عمرو: احملوني إليه وقد أقعد، فحمل إليه، فلم يأت إلى أصحابه إلا بعد ليل. فقالوا له: كيف رأيت؟ فقال: والله ما رأيت مثل هذا القرشي قط(٢٤٣). ويظهر أنه بعد هذا اللقاء توطدت المعرفة بين هذين العالمين، حيث يروي تلميذ عمرو، سفيان بن عيينة (ت ١٩٨هـ) قال: مرض عمرو بن دينار فعاده الزهري فلما قام الزهري، قال عمرو: ما رأيت أنص للحديث الجيد من هذا الشيخ(٢٤٤).

وأخذ العلم عن عمرو علماء كثيرون، منهم أبو جعفر الباقر المدني الذي يقول: «إنه ليزيدني في الحج رغبة لقاء عمرو بن دينار فإنه يحبنا ويفيدنا»(٢٤٥). وكان تلاميذه لا يقدمون عليه أحداً فعبد الله بن أبي نجيح الذي أصبح

مفتي مكة من بعده يقول: «ما رأيت أحداً قط أفقه من عمرو بن دينار لا عطاء ولا مجاهداً ولا طاووساً»(٢٤٦). وقال تلميذ آخر ـ وهو عالم مكة سفيان بن عيينة ـ: «ما كان عندنا أحد أفقه من عمرو بن دينار ولا أعلم ولا أحفظ منه»(٢٤٧).

ويبدو أن اهتمام عمرو بن دينار بالسيرة والتاريخ كان ضئيلاً، فكل ما يحفظ له الطبري في تاريخه أربع روايات في السيرة النبوية(٢٤٨)، ورواية واحدة عن النزاع بين ابن الزبير ويزيد بن معاوية(٢٤٩).

وفي نهاية العصر الأموي برز عالم يجسد الشمولية في علوم عصره كما كان يمثل طموح وتطلعات جيله وهو عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج (٨٠هـ ـ ١٥٠هـ). وجريج جد عبد الملك كان عبداً رومياً لأم حبيب بن جبير بن مطعم زوجة عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أُسَيِّد الأموي(٢٥٠).

كانت اهتمامات عبد الملك المبكرة في تتبع الأشعار والأنساب، ولكن يظهر أن سوقها في تلك الأيام كانت كاسدة، ولا يمكن تحقيق مكانة علمية واجتماعية إلا عن طريق الاشتغال بالفقه والحديث والدراسات القرآنية، ولهذا فقد نُصح عبد الملك بالأخذ بهذه العلوم وترك ما هو فيه. وقد أخذ هذه النصيحة على محمل الجد، وربما أنه هو نفسه قد أدرك حقيقة هذا الأمر، ثم قرر الالتحاق بمجلس عطاء أشهر علماء مكة في عصره، ولكنه لم يكن في مستوى علمي يؤهله إلى الالتحاق بهذا المجلس، يقول: «أتيت عطاء وأنا أريد هذا الشأن وعنده عبد الله بن عبيد بن عمير (ت ١١٣هـ) فقال لي ابن عمير: قرأت القرآن؟ قلت: لا، قال: فاذهب فاقرأه ثم اطلب العلم. فذهبت فغبرت زماناً حتى قرأت القرآن، ثم جئت عطاء، وعنده عبد الله فقال: قرأت الفريضة؟ قلت: لا. قال: فتعلم الفريضة، ثم اطلب العلم. قال: فطلبت الفريضة،

ثم جئت فقال: الآن فاطلب العلم. فلزمت عطاء سبع عشرة سنة(٢٥٢).

وإذا كان ميلاد عبد الملك سنة ثمانين هجرية ووفاة عطاء سنة أربع عشرة ومائة فكانت سن عبد الملك عند التحاقه بحلقة عطاء قرابة سبع عشرة سنة، وهذا يؤدي بنا إلى استخلاص نتيجتين من هذا النص: هما أن حلقة أو مجلس عطاء يشبه المرحلة الجامعية في عصرنا الحاضر فلا بد للملتحق بها أن يكون على مستوى علمي معين وسن معينة. أما ما ورد في النص: «قرأت القرآن؟ قلت: لا.» يجب ألا يفهم أنه لم يقرأ القرآن على الإطلاق فهذا أمر مستبعد، وإنما الظاهر أن المقصود قراءة معينة أو قراءات، وربما حفظ القرآن أو شيء منه ومعرفة بالتفسير وأسباب النزول.

وقد أخذ العلم من حديث وفقه وقراءات عن عدد كبير من التابعين، وقائمة شيوخه تعطي صورة عن المشاركين بالحركة العلمية(٢٥٣). وكان شديد الملازمة لعطاء بصفة خاصة، فقد قال: «لم يغلبني على يسار عطاء عشرين سنة أحد. فقيل له: ما منعك عن يمينه؟ قال: كانت قريش تغلبني عليه»(٢٥٤). وبسبب من ذلك الحرص وتلك الملازمة قيل: «لم يكن في الأرض أحد أعلم بعطاء من ابن جريج»(٢٥٥). ولم يقنع ابن جريج الاكتفاء بعلم عالم مكة في عصره عطاء بن أبي رباح فقد قال: «جالست عمرو بن دينار بعدما فرغت من عطاء سبع سنين»(٢٥٦).

وابن جريج كان صادقاً مع نفسه ومع غيره في دوافعه لطلب العلم تلك السنوات الطوال، قال الوليد بن مسلم: سألت الأوزاعي وسعيد بن عبد العزيز وابن جريج: لمن طلبتم العلم؟ كلهم يقول لنفسي غير ابن جريج فإنه قال: طلبته للناس. وقد أعجب قوله الذهبي فقال: ما أحسن الصدق! واليوم تسأل الفقيه الغبي لمن طلبت العلم؟ فيبادر ويقول: طلبته لله. ويكذب

إنما طلبه للدنيا، ويا قلة ما عرف منه(٢٥٧).

وبالرغم من اعتراف ابن جريج بصدق دوافعه فإننا نرى مع ذلك، أنه لا يمكن أن يتفانى ابن جريج في تحصيله العلم دون أن يكون لديه رغبة حقيقية في محبة العلم سواء كانت دوافعه دينية أو دنيوية أو الاثنين معاً.

وقد اعترف أستاذه عطاء بنبوغه فلما سئل: «من نسأل بعدك يا أبا محمد؟ قال: هذا الفتى إن عاش ـ يعني ابن جريج ـ»(٢٥٨). وقال عنه أيضاً: «سيد شباب أهل الحجاز ابن جريج»(٢٥٩).

ولم يكتف ابن جريج بالأخذ عن العلماء المكيين فقد قال أحد علماء المدينة وهو أبو بكر بن عبد الله بن أبي سبرة (ت ١٦٢هـ): قال لي ابن جريج: اكتب لي أحاديث سنن: قال: فكتبت له ألف حديث ثم بعثت بها إليه ما قرأها عليّ وما قرأتها عليه(٢٦٠).

ويمثل ابن جريج نقله نوعية في الحركة العلمية بمكة وغيرها، فقد قال عنه أحمد بن حنبل (ت ٢٤٠هـ): أول من صنف الكتب ابن جريج وابن أبي عروبة(٢٦١). وكان يقول عن نفسه: «ما دون العلم تدويني أحد»(٢٦٢). ويروى أن ابن جريج خرج إلى البادية في أطراف مكة فصنف كتبه على ورق العشر ثم حولها في البياض، فكان إذا قدم محدث حمل إليه كتابه فيقول: أفدني ما كان في هذه الأبواب(٢٦٣). وقد وصفه الذهبي بصاحب التصانيف(٢٦٤). على أنه يجدر القول بأن هناك إشارات إلى كتب لبعض العلماء أسبق من ابن جريج مثل ما ذكره موسى بن عقبة (ت ١٣٥هـ) قال: «وضع عندنا كريب حمل بعير أو عدل بعير من كتب ابن عباس، فكان علي بن عباس إذا أراد الكتاب كتب إليه: ابعث إلي بصحيفة كذا وكذا. فينسخها فيبعث إليه بإحداها»(٢٦٥). ومثل ذلك الرواية التي أشرنا إليها آنفاً أن القاسم بن أبي بزة

قد روى تفسير مجاهد ودونه في كتاب . والذي يظهر لنا أن كتب ابن عباس والقاسم بن أبي بزة وأمثالها من الصحائف أنها لا تعدو من حيث المنهج أن تكون مماثلة للروايات الشفهية إلا أنها مدونة ، بينما عمل ابن جريج هو أقرب إلى التأليف الموضوعي الذي نعرفه وإلا لما استحق عمله الإشادة من الآخرين . قال أحد معاصريه : «كنا نسمي كتب ابن جريج كتب الأمانة ، وإن لم يحدثك ابن جريج من كتابه لم تنتفع به»(٢٦٦) . وقيل : «ابن جريج ثقة في كل ما روي عنه من الكتاب»(٢٦٧) . ربما تعود تسميتها بكتب الأمانة إلى مقارنتها بصحف عمرو بن شعيب(٢٦٨) ووهب بن منبه(٢٦٩) التي هي محل طعن كثير من النقاد .

وكان ابن جريج ـ على ما يروي ـ يعتقد مثل شيخه عطاء بصحة زواج المتعة وقد تزوج بستين امرأة ، وقيل : إنه عهد إلى أولاده بأسمائهن لئلا يغلط أحد منهم فيتزوج واحدة مما نكح أبوه بالمتعة(٢٧٠) . أما الشافعي فيروي أنه استمتع بتسعين امرأة(٢٧١) .

قد اشتغل ابن جريج في التجارة وكان شريكاً لزياد بن سعد الخراساني وقد وصفه زياد بأنه من أهل الحفظ والإتقان في السر والإعلان(٢٧٢) . ويظهر أن أسرة ابن جريج كانت ميسورة الحال فأبواه يخرجان كل سنة إلى الطائف ، ويقيمان فيها في فصل الصيف ، وربما أنها كانت تملك بستاناً أو بساتين بالطائف .

على أنه ضاق به الحال في آخر عمره بالرغم من كونه شيخ الحرم ومفتي مكة فعمل مثلما كان يعمل الكثير من العلماء في مكة في السفر إلى الأمصار الإسلامية طلباً للرزق فسافر إلى العراق وسافر إلى اليمن(٢٧٤) ، وربما أنه سافر إلى غيرهما .

لقد خلف ابن جريج علماً كثيراً تمثل بالكتب والطلاب، ومن الذين تفقهوا عليه مسلم بن خالد الزنجي (ت ١٨٠هـ) وتفقه بالزنجي الإمام الشافعي (ت ٢٠٤هـ) وكان الشافعي بصيراً بعلم ابن جريج عالماً بدقائقه(٢٧٥).

لقد خلص البحث إلى عدد من النتائج هي: أن بداية الحركة العلمية، وهي ما أسميناها بالمرحلة الأولى، كانت متواضعة جداً، وكانت العلوم في هذه المرحلة: قراءة القرآن، ورواية السنن، والقصص الذي يتضمن المواعظ والتذكير.

وتغير الوضع كثيراً بمجيئ ابن عباس إلى مكة واستقراره فيها، فقد نشر علماً كثيراً وكثر طلاب العلم، وتوسعت العلوم نسبياً، وتعمق الدارسون في هذه العلوم. وقد شارك في نشر العلم بمكة، بالإضافة إلى ابن عباس عدد من علماء الصحابة مثل عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو بن العاص وجابر بن عبد الله. وبرز عدد من العلماء المكيين منهم عطاء بن أبي رباح الذي تفوق في الدراسات الفقهية، ومجاهد بن جبر الذي تفوق في الدراسات القرآنية، قراءة وتفسيراً، ومنهم من جمع بين هذين الفرعين مثل عكرمة مولى ابن عباس وسعيد ابن جبير، ويمثل هؤلاء مع آخرين المرحلة الثانية في الحركة العلمية بمكة. أما المرحلة الثالثة فقد تميزت بأمرين، الأول: هو كثرة الطلاب كثرة لافتة للانتباه، والثاني: وجود مدرستين متميزتين، إحداهما كان تركيزها على الدراسات القرآنية ومن أهم علمائها عبد الله بن كثير الداري الذي أصبح له طريقة في القراءة أخذها عنه المكيون كما أخذها عنه بعض طلاب الأمصار الإسلامية الأخرى. والمدرسة الثانية كان تركيزها على الدراسات الفقهية والحديث ومن أبرز علمائها عمرو بن دينار وعبد الملك بن جريج.

بقية الموضوع في العدد القادم إن شاء الله تعالى